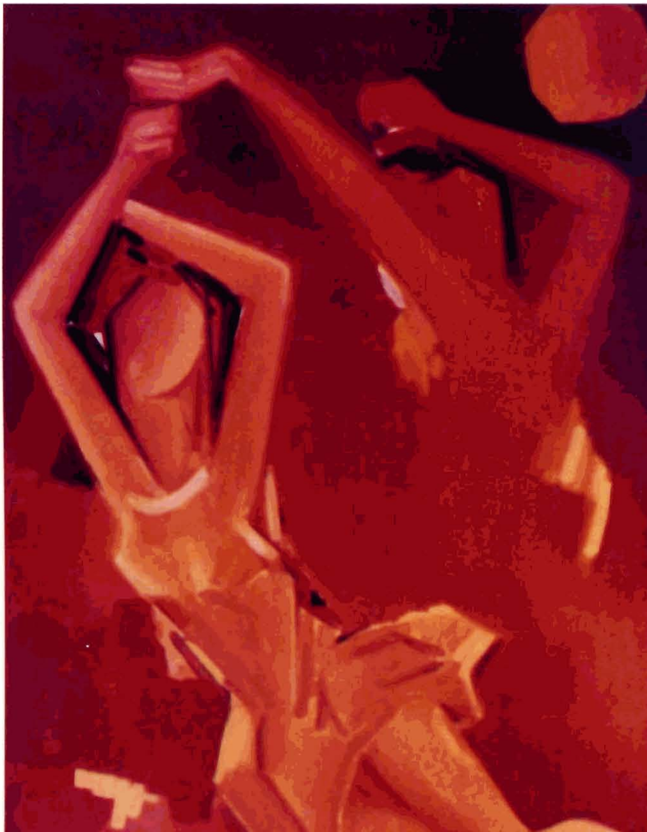
پول إيلوار

قصائد حب

(يليها رسائل الى غالا)



إختيار وتقديم:

عصام محفوظ

anep
الفارابي

قصائد حب

پول إيلوار

قصائد حب

يليها رسائل إلى غالا

اختيار وتقديم

عصام محفوظ

ANEP ـــ دار الفارابي

الكتاب: قصائد حب
اختيار وتقديم: عصام محفوظ
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: * دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
* **المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)**
28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر
الهاتف: 53/ 52 38 37 21 213
الفاكس: 53/ 20 72 36 21 213
e-mail: dcpa@anep.com.dz
الطبعة الأولى 2003
ISBN: 9953-438-50-1

دار الفارابي
شركة المطبوعات اللبنانية ـ لبنان

منشورات ANEP
إقامة النجاح ـ 11، شارع الأخوة بوعدو
بئرمراد رائس ـ الجزائر
الهاتف: 58 95 44 21 213
الفاكس: 65 95 44 21 213

«تلك التي أحبّ
تجسد رغبتي في الحياة
الحياة التي أعيشها الآن هي أبداً الآن.
ولأنه ليس ثمة حياة أخرى فإنها حياة رائعة».

پول إيلوار



1913، غالاوپول

مدخل

يقول پول إيلوار، أحد أشهر شعراء القرن العشرين، وأحد أجمل شعراء الحب في كل العصور: «لأننا نحب، نريد تحرير الآخرين من وحدتهم القاتلة».

يصعب فصل موضوع الحب في شعر بول إيلوار عن باقي الموضوعات في شعره، كما يصعب فصل الحب عن الحياة: «تلك التي أُحبّ تجسّد رغبتي في الحياة/الحياة التي أعيشها الآن، فإذا هي الآن إلى الأبد. /تجسّد رغبتي في حياة بلا حسرة، في حياة بلا ألم، في حياة بلا موت. /ولأنه ليس ثمة حياة أخرى، فالحياة رائعة». وكأنه يرد على رامبو الذي يقول: «مستحيل أن توجد حياة أخرى أكثر فظاعة». وأما لإيلوار فلأنه ليس ثمة حياة أخرى فإن فظاعة الحياة غير محتملة لولا الحب.

ولذلك يقول رفيق إيلوار في المقاومة ضد النازية، موريس لاكازيت، في رسالة إلى زوجته، قبل إعدامه: «وداعاً، كوني سعيدة، وقريباً عندما تشفين من ألمك، أتمنّى لك أن تجدي

رفيقاً يليق بك. يصعب عليّ هذا القول، فأنا أغار عليك حتى في مواجهة الموت، لكنك تستحقين السعادة كثيراً، وأنا أتمنّاها لك من كل قلبي».

إنها السعادة التي تطلع من أحشاء الألم، كما المستقبل من الماضي، وكما الحرية من الطغيان. ولهذا لم يكن مستغرباً، كما يروي الشاعر أوجين غيفيك، أن إيلوار استبدل اسم حبيبته باسم «الحرية» عنواناً لإحدى أشهر قصائده في الحب، وقد افتتحتُ بها هذه المختارات.

ع. م.

قصائد حب

«الحرية»

«على دفاتري المدرسية
على طاولتي وعلى الأشجار
على الرمال وعلى الغيوم
أكتب اسمك.

على كل الصفحات المقروءة
على كل الصفحات البيضاء
على الحجر على الدم على الورق أو الرماد
أكتب اسمك.

على الصور المذهبة
على أسلحة المحاربين
على تيجان الملوك
أكتب اسمك.

في الغابة وفي الصحراء
في الأعشاش وعلى الوزال
على صدى طفولتي
أكتب اسمك.

على روائع الليل
على خبزنا اليومي
على الفصول المتعاقبة
أكتب اسمك.

على كل أشيائي الزرقاء
على المستنقع الشبيه بشمس متخثرة
على البحيرة الشبيهة بقمر مضطرب
أكتب اسمك.

على الحقول على الأفق
على أجنحة العصافير
على طاحونة الظلال
أكتب اسمك.

على كل نسمة فجر
على البحر على المراكب

على الجبل الوعر
أكتب اسمك.

على زبد الغيوم
على رشح العاصفة
على المطر الغزير على المطر الخفيف
أكتب اسمك.

على الأشكال المتألقة
على الأجراس على الألوان
على الحقيقة الطبيعية
أكتب اسمك.

على الدروب المتيقظة
على الدروب المفتوحة
على الساحات المستفيضة
أكتب اسمك.

على كل مصباح يضاء
وكل مصباح ينطفىء
وعلى كل البيوت
أكتب اسمك.

على الثمرة المقسومة
على المرآة وفي غرفتي
على سريري الخالي
أكتب اسمك.

على كلبي الشره اللطيف
على أذنيه المنتصبتين
على ساقه الخرقاء
أكتب اسمك.

على جرس بابي
على الأشياء اليومية
على موج النار المقدسة
أكتب اسمك.

على زجاج المفاجآت
على الشفاه المتنبهة
وعلى كل يد تمتد للمصافحة
أكتب اسمك.

على مخبأي المهدوم

على مناراتي المنهارة
على جدران سأمي
أكتب اسمك.

على غياب بلا آمال
على الوحدة العارية
على درجات الموت
أكتب اسمك.

على العافية المستعادة
على المخاطرة الضائعة
على الأمل بلا ذكريات
أكتب اسمك.

بقوة كلمة
أستعيد حياتي
وهل ولدت إلا لأعرفك
وأسميك
يا حرية».

العاشقة

واقفة على أهدابي
وشعرها على شعري
لها شكل يدي
لها لون عيني
مغمورة بظلي
كما حجر مغمور بالسماء

عيناها مفتوحتان أبداً
فلا تدعاني أنام
أحلامها المضيئة
تكسف الشموس
تجعلني أضحك، أبكي وأضحك،
أتكلم ولا كلام لديّ.

يد حلوة

هذه الشمس التي تُعول في ماضيّ
لم تتخط عتبة
يدي ويديك، مرج
يتوالد فيه دائماً
العشب وأزهار النزهات
والعيون وكل أوقاتها،
حيث الفراديس والعواصف الموعودة.
لقد حفظت الأحلام صورتنا
هذه الشمس التي تعاني الفتوّة القديمة
لا تكتهل، إنها فظيعة
تقنّعني بالفضاء العميق كقبر
وعليّ أن أكتشفه
بشغف
بواسطة الكلمات.

كائن

بجبين مثل راية ضائعة
أجرّكِ إذ أكون وحيداً
في شوارع باردة
وغرف سوداء
صارخاً: يا للشقاء.
أنا لا أريد أن أتركهما
يديك النقيتين المتشابكتين
المولودتين في مرآة يدي المغلقة.
كل ما تبقى هو الكمال
كل ما تبقى هو أيضاً أشدّ عبثاً
من الحياة.
أحفري الأرض تحت ظلك
ينبوع ماء عند الثديين
حيث نغرق
كحجر.

كل الحقوق

تنكّري
بالظل المبرعم لزهرات معلقات في الربيع
بأقصر نهار في السنة وبليل الأسكيمو
بحشرجة عرافي الخريف
برائحة الورود، بلذعة القرّيص
وفردوس رمادها،

العجيبة المجردة تصارع عقارب ساعة الحائط
وجراحَ الحقيقة، والوعود التي لا تنثني

أخرجي
بمقدورك أن تخرجي بثوب من بلور
فجمالك متكامل
عيناك تذرفان دموعاً ومداعبات وابتسامات
عيناك اللتان بلا سر، بلا حدود.

لن يعرفني أحد

لن يعرفني أحد
كما تعرفينني
عيناك اللتان كنا ننام فيهما
معاً
كانتا تصنعان لأحلامي
حظاً لا تستطيعه كل ليالي العالم
عيناك اللتان فيهما كنت أتجوّل
تمنحنان إشارات الطرق
اتجاهات أبعد من الأرض.
وفي عينيك اللتين تفضحان
وحدتنا اللامتناهية
لا نعود من يظنون أننا هما
لن يعرفك أحد
كما أعرفك.

تنهضين

تنهضين فالماء ينداح
أو ترقدين فالماء يتهلّل
أنت الماء المتحوّل عن لُججه
أنت الأرض التي توطّدت
والتي عليها كل شيء يُبنى

تصنعين فقاعات من الصمت في صحراء الضجيج
ترنمين أناشيد ليلية
على أوتار قوس قزح
وفي كل مكان تهدمين كل الطرق
تضحين بالزمن على مذبح الفتوة
التي تعيد خلق الطبيعة
أيتها المرأة إنك تضعين في العالم جسداً
متشابهاً دوماً
هو جسدك. إنك التشابه.

الأنداد

غيّرتُ رأيي
في اتّباع أثركِ
في اتباع ساقيك يديك عينيك
والثوب الماهر الذي يصنعك
لكي تستبدليه.

غيرت رأيي
تمرين في الشارع
في عاصفة من الشمس
فألتقيك أتوقف
إنني فتي، تذكرين؟

غيرت رأيي
فمك غائب
لا أعود أكلمك تنامين

ثمة نيران رعب في الليل
ساحة دموع صافية في أحلامك
لم نعد حزينين معاً
فأنساك.

غيرت رأيي
إنك لا تستطيعين النوم
على سلالم لاهية
أبداً
بين الزهرة والثمرة
في المدى
تفتشين عن النعاس
أول الندى الأبيض
وتنسينني.

غيرت رأيي
تضحكين تلعبين مليئة حيوية
وحشرية صحراء تخيّم لأجلك
بملء ثقتي.

انتهى
لم أعد أقدر على نسيانك

لن نفترق أبداً
يلزمنا الاستقرار
وموت مناسب
والنهار في عز خسارته يعقد النجوم
بطرف نظرة واحدة
من معدن التأمل نفسه
يلزم حرق أبي الهول الذي يشبهنا
وعينيه الموسميتين
وزَبَد وحدته.

* * *

مساواة الجنسين

عيناك تعودان من بلاد قاسية
حيث لم يدرك أحد ما معنى نظرة

أو معنى جمال العينين، جمال أحجار كريمة
كنقاط ماء، كلآلىء في خزائن

أحجار عارية بدون هياكل أيا تمثالي
ها هي الشمس الباهرة تجعلك مرآتها
وإذا كانت تخضع لشروط المساء
فلأن رأسك مطبق أيا تمثالي المصعوق
بحبي وبحيلي الوحشية
رغبتي الثابتة هي آخر ملجأ لك
وسأسبيك بدون معركة، أيا صورتي،
المحطمة بضعفي،
والمأسورة بقيودي.

أسبوع

[1]

موجات الساقية
تكمل السماء
الريح والورقة والجناح
النظرة، الكلام،
وكوني أحبك،
كل ذلك حركة.

[2]

خبر سعيد
سيأتي هذا الصباح
هو أني أحبك.

[3]

أود أن أشاركك في حبنا المتفرد
أشد الأماكن حشداً في العالم،
لكي نفسح مكاناً
لأولئك الذين يتحابون مثلنا.
إنهم كثيرون إنهم نادرون.

[4]

ألوم قلبي، ألوم جسدي
لكني لا أؤذي تلك التي أعبد.

[5]

كنا اثنين وكنا قد عشنا
نهار حب مشمس
لقد عانقنا شمسنا سوية
وكانت الحياة واضحة بأكملها لنا.
عندما أقبل الليل. كنا بلا ظلال
نصقل ذهب دمنا المشترك
كنا اثنين بقلب كنز واحد
لا يغيب عن الضوء أبداً.

[6]

الشباب يُمَازج الضياء
بخضرة الظلمات
أما أنت فتمزجين جسدك الفاتر
برغباتي المشتعلة.

[7]

تتدثرين، تشعين،
تنامين وتستيقظين
طوال الفصول الأمينة
تعمّرين بيتاً
يمنحه قلبك النضج
مثل سرير، مثل ثمرة،
ويستجير جسدك به
وتتمدد فيه أحلامك
ذاك هو بيت الأيام الرقيقة
ومن ثمَّ قُبَلٌ في الليل.

عالم الوحدة

ثمار النهار تحضنها الشمس
ثمة امرأة وحيدة لا تنام
فالنوافذ كلها نائمة

*

ثمة امرأة كل ليلة
تسافر بالسر

*

يلذ لي أن أنزل إليك
كما المسافة يقطعها الزمن
تحملني ذكرياتنا
يلزمك مكان أوسع
لتكوني دائماً معي.

التفاهم

في قلب المدينة، الرأس مأخوذ بفراغ مكان
غير دارٍ بالذي يوقفك أنت، يا من هي أشد صلابة من تمثال
تمنحين الوحدة رعبوناً لكي تلتزم بك.

هلاّ تأملت يديك
هلا لمستِ يديك
كم هما صغيرتان عذبتان
إنهما أيدي كل النساء
تغطيها أيادي الرجال كقفاز
وللأيدي جميعها غرض واحد
عندما تتحدثين إلى نفسك إنما تتحدثين إلى الآخرين
وعندما تجاوبين نفسك إنما هم الآخرون الذين يسمعونك
تحت شمس السماء العالية
التي تحرّرك من ظلّك

تحتلين مكان أي منا وحقيقتك لا تنتهي
عيناك المختلفتان والغامضتان والمتقلّبتان
ستبرعمان المرايا
تغطيانها بالندى والبرد واللقاح
تلك المرايا الغريزية حيث تتجوّل الأشجار
وحيث تتجمع الآفاق.
تجويف جسدك يقطف الانهيارات لأنك تشربين من الشمس
تكسرين النغمة الأولى
وتعيدينها للعالم
تغمرين الإنسان
ضاحكة على الدوام
يا ناري الصغيرة الشهوانية
المستعدة دوماً للغناء
يا شفتاي المزدوجتان الملتهبتان
الدروب الناعمة التي يخطها دمك الصافي
تجمع الكائنات
إنها الطحلب يغطي كل القفار
دون أن يستطيع الليل ترك آثار فيه
جميلة حتى النوم في كل مكان، حتى الحلم،
وأنت تتنشّقين هواء نقياً في كل لحظة
على الأرض كما بين الأثمار
الذراعان، الساقان والرأسان

جميلة للرغبات المتجددة
كل شيء جديد كل شيء للمستقبل
الأيدي التي لا تتلاقى لا تساوي شيئاً
وعند التلاقي يفيض الضياء
وتضجّ الأصداء حولنا، حتى أبعدها
إيه ماء الشجر الهادىء العاري
إننا نمر بين أشباهنا
دون أن نضيع أنفسنا
في هذا المكان المطلق لست وحيدة
إلا كما هي الورقة في الشجرة
أو العصفور في الجو
إلا كما يكون الكنز المكتشف
أو الضحك معاً في الطرقات
وكل خطوة تزداد خفة وسرعة
نحن اثنان بعيدان عن الحكمة
اعترفي فالسماء ليست قاسية
هذا الصباح ما هو إلا لعبة على فمك المرح

الشمس التفّت بنسيجها
نقود الماء الصافي وكل كمال
نحو الصيف الغامر
على بحر له لون وشكل جسدك

مأخوذ بأنوائه التي تجدد ثوبه أبداً
ثوبه الحار المزاجي
المتقلّب مثلي.

إيه حكمتي، الدب القطبي عليه أن ينام أكثر مني
ليكتشف أشياء مهمة
إلا إذا أحب.

في طريقها لكي تصبح مداعبات
ضحكاتك وحركاتك تضبط مسلكي
وتصقل البلاط
وأضحك معك وأظنك وحيدة
طوال الوقت على طريق لا ينتهي.

نحن صنعنا الليل، أمسك بيدك ساهراً
أعصرك بكل قواي
أحفر على صخرة نجمة قواك
بأخاديد عميقة حيث ستزهر طيبة جسدك

أردد لنفسي صوتك الخبيء صوتك الجهور
ضاحكاً أيضاً من هذه المتكبرة التي هي أنت
التي تعاملينها كمتسولة

وأضحك من مجانينك وبسطائك
وفي رأسي الذي يتآلف بعذوبة
مع رأسك ومع الليل

تأخذني الدهشة من المرأة المجهولة التي تصيرينها
مجهولة شبيهة بك، شبيهة بكل ما أحب،

جديدة أبداً.

شعرك البرتقالي

شعرك البرتقالي في فراغ العالم
في فراغ الصمت الثقيل
في الظلال حيث تبحث يداي العاريتان عن آثارك
وقلبك الأسطورة
وحبك الشبيه برغبتي الضائعة
يا لتنهدات العنبر والأحلام والنظرات
لكنك لم تكوني دائماً معي
لقد أظلمت ذاكرتي من كثرة تأملي في رواحك ومجيئك
آه الزمن، إنه يستخدم الكلمات... كالحب.

نظام وفوضى الحب

وحتى أبدأ بالعناصر سأسمّي
صوتك وشفتيك، يديك وشفتيك
إني على الأرض هل كنت عليها
لو لم تكوني أنت
في هذا الحمّام الذي يواجه البحر
والمياه العذبة
في هذا الحمام الذي بنته
الشعلة في عينينا
حمام الدموع السعيدة
الذي دخلته
بفضيلة يديك
بنعمة شفتيك
هذا الوضع الإنساني الأول
الذي يشبه الواحة.
صمتنا، كلماتنا،

الضوء الذي يغيب
الضوء الذي يعود
في قلب جسدنا
حيث كل شيء يزهر ويثمر
على أرض حياتك
حيث أُرقد عظامي العتيقة
حيث أنتهي.

استدارة عينيك

استدارة عينيك تكملان دورة قلبي كحلقة للرقص وللعذوبة
حيث للوقت هالته المجيدة ومهده الليلي
وإذا كنت لم أعد أعرف كل ما عشته
فلأن عينيك لم تكونا عليّ كل الوقت.

أنت الصدى المعطّر للأسحار
الذي يضطجع على سرير النجوم
وكما النهار متصل بالبراءة
كذلك العالم كله متصل بعينيك
وكل دمي يسيل في نظراتهما.

* * *

حميمات

[1]

تنزلقين في السرير
كحليب متخثر
شقيقاتك الأزهار
وأخوتك الثمار
ودورة الفصول
حول السهم المتوهّج
لدى الخصر المتثنّي
تفتح يداك وعيناك وشعرك
للنمو الجديد
المستمر
تمنّي، تمنّي، تمنّي
بأنك ستبتسمين
للمرة الأولى

تمنّي
بأنك ستتبسمين
دائماً
بعيداً عن التفكير بالموت

[2]

فدىً لكل الأعنّة يا من طيفها
يهدهد الليل على نغم كمنجة
تعالي املكي على هذه الغابات
فسياط العواصف
تبحث عن طريقها من لدنك
أنت لست من اللواتي
نتصنّع أمامهن الرغبات
تعطشك أشد تقلباً
من غريق
تعالي اشربي قبلة من هنا
واستسلمي للنار التي تسحقك.

[3]

أية شمس في المرآة أنتِ
وأية إجازة مجنونة هو ربيعك.

[4]

مثل قوة ملتهبة هوجاء
شعرك الأسود حيث يسيل الذهب جنوباً

في الليالي المتلاشية
ذهب مُبتلع. نجمة زانية
في سرير لم يتقاسمه أحد.

لدى شرايين الأصداغ
كما في أطراف الأثداء
تُنكر الحياة ذاتها
ولا أحد يستطيع أن يسجل تلك العيون
ولا أن يشرب من وهجها أو دموعها
يغمرها الدم منتصراً لنفسه
آه كم هي شرهة بلا حد
ومجانيّة
هذه العافية التي تبني سجنها.

[5]

لا رغبة لي سوى أن أحبك
عاصفة تفعم الوادي
وسمكة تملأ الساقية

صنعتك على مقاس وحدتي
والعالم كله مكان للاختباء
وأيام وليال لكي نفهم أنفسنا
لكي لا أعود أرى في عينيك
إلا ما أطلبه منك
ومن عالم على صورتك
وأيام وليال ترسمها أجفانك.

تلك الدائمة

إذا قلت لك «تخليت عنك»
لأنك لست التي لجسدي
أنا لا أغترّ بذلك مطلقاً
وضباب الغور الذي أدور فيه
لا يدرك أبداً إذا كنت قد عبرتُ
مروحة ثغرها، بريق عينيها،
أنا وحدي أتكلم عنها
أنا الوحيد الذي تحيط بي هذه المرآة
الباطلة حيث يجول الهواء عبر ذاتي
والهواء له وجه، وجه محبوب،
وجه عاشق، وجهك،
أنت التي لا اسم لك،
والتي يجهلك الآخرون
البحر يقول لك: علّي. السماء تقول لك: علّي.
الكواكب تفكر فيك، الغيوم تتصورك

والدم المنتشر في اللحظات الرائعة
دم الكرم
يحملك بغبطة
إني أغني الفرح الكبير في أن أغنيك
الفرح الكبير في أن أنالك أو لا أنالك
سذاجة انتظارك، براءة فهمك
يا من تبعدين النسيان والأمل والجمال
تبعدين الغياب، وتضعينني في العالم،
إني أغني لأغني، إني أحبك لأغني
السرّ، حيث الحب يخلقني ويستسلم

إنك نقية، أكثر نقاء من نفسي.

* * *

ليال مشتركة

كلما اجتمعنا، صوتك يغمر عينيك كما يغمر الصدى سماء المساء. فانزل إلى ضفاف أبهتك. ما تقولين؟ بأنك لم تشعري مرة بالوحدة، وبأنك ما حلمت مرة منذ لقائي بك، وبأنك كحجر كريم يُقطع إلى حجرين كلاهما أجمل من الحجر الأم، وبأنك كنت امرأة الأمس وبأنك امرأة اليوم أيضاً، وبأنه ليس ثمة ما يستدعي الشفقة عليك لأنك إنما انقسمت لكي لا يقدر أحد على إمساكك في اللحظة نفسها.

عارية كلياً، عارية كلياً، وثدياك رقيقان كعطر النبت المجمد، وكأنهما يحملان كتفيك. عارية كلياً. تنزعين ثوبك ببساطة رائعة. وتغمضين عينيك وها، كما يسقط ظل على جسد، سقوط الظل بكليته على آخر التوهج.

براعم الموسم تتساقط، فتخرجين لي قرارة قلبك. إنه ضوء الحياة الذي يستغل اللهب المتضائل، إنها الواحة التي تستغل الصحراء، وكم هي خصبة الصحراء، وكم هو مغذّ العزاء. النداوة الرقيقة المجوفة تستحل العش العاصف الذي يلهمك رغبتك بي، ومن فوق، تنزلق جدائلك في الهاوية التي تبرر افتراقنا.

مستحمّة الضوء المعتم

في قيلولة النهار خفيفة تتحركين
وخفيفاً يتحرك الرمل والبحر
آه نظام الأضواء، نظام الساعات
لكن هذا الظل الذي كان يختفي، وهذا
العنصر المؤلم الذي كان يختفي
في المساء، والنبلاء يصيرون جزءاً من هذه السماء
هنا كل شيء يجثم في نار تنطفىء
في المساء لا يعود للبحر ضياء
وكما في الأزمنة القديمة
باستطاعتك أن تنامي في البحر.

وصلة

القمر يغفو في عين والشمس في الأخرى
حب في الثغر، عصفور جميل في الشعر.
مزينة مثل الحقول والغابات والدروب والبحر

جميلة ومزينة مثل وردة العالم

و
أهرب عبر المنظر
خلَلَ أغصان الدخان وكل ثمار الريح
سيقان من صلصال بجوارب من رمال
مفصلة على قياس عضلات الساقية
والهم الأخير على وجه متبدل.

تبرّج

دخلت مخدعها لتبدل ثيابها، بينما كان السماور يغني. صفق تيار الهواء، الآتي من النافذة، صفق الباب وراءها فانغلق. برهة قصيرة، إنها تصقل عريها الغريب، الأبيض، والمستقيم. ومن ثم انزلقت في ثياب الأرملة.

الأرض زرقاء كبرتقالة

الأرض زرقاء كبرتقالة
هكذا بالضبط فالكلمات لا تكذب
فهي لم تعد صالحة للغناء
حول قبلات تجمع
الجنون والحب
هي وفمها كخاتم خطبة
كل الأسرار كل السرور
ويا للثياب الكريمة
لدرجة تبدو كأنها بلا ثياب.

الدبابير تزدهر خضراء
والفجر يطوف حول العنق
كعقد نوافذ
وأجنحة تحضن الأوراق

إنك تملكين كل الفرح الشمسي
وكل الشمس على الأرض
على دروب جمالك.

* * *

الجبين على النافذة

الجبين ملتصق بزجاج النافذة كما هي حال سهّار التعاسة
ثمة سماء تجاوزت ليلها
سهول صغيرة في يدي المفتوحتين
في أفقهما المزدوج الجامد واللامبالي

الجبين على زجاج النافذة
كما هي حال الساهرين التعساء
أفتش عنك عبر الانتظار
عبر نفسي
ولا أعود أعرف لشدة ما أحبك
أيّنا الغائب.

* * *

الغربان تصفع المدى

الغربان تصفع المدى
الليل يتلاشى
تجاه رأس يستيقظ
مبيضّ الشعر مع آخر حلم
واليدان تصنعان النهار بحركة دمهما
بفركهما
ثمة نجمة تسمى اللازورد
ولها شكل الأرض
أيتها المجنونة الصارخة بكل حنجرتها
يا مجنونة الأحلام
أيتها المجنونة ذات القبعات الوحيدة العين
والطفولة المختصرة يا مجنونة الرياح الهوجاء
ما الذي تفعلين لتكوني جميلة هكذا مغناجة
لا تضحكي
فالجهل واللامبالاة

يكتمان أسرارهما
أنت لا تعرفين متى تبدئين التحية
ولا كيف تقارنين نفسك بالروائع
أنت لا تسمعينني
لكن فمك يشاطرني الحب
وإنما عبر فمك
وإنما عبر لهاث قلبنا
نكون معاً.
يجب أن يوجد وجه
يستجيب لكل أسماء العالم.

* * *

أنت الوحيدة

أنت الوحيدة وإني أسمع أعشاب ضحكتك
أنت رأسك الذي يخطفك
وفي أعلى أخطار الموت
تحت الدوّامات المجبولة بأمطار الأودية
تحت الضياء الثقيل تحت السماء السرابية
تلدين السقوط
لم تعد العصافير ملجأ كافياً
ولا الكسل ولا التعب
ذكرى الغابات والسواقي الموهنة
في صباح النزوات
في صباح المداعبات الظاهرة
في الصباح العظيم للغياب، السقوط.

قوارب عينيك تتيه

في تخريمة الاختفاءات
الهوّة مكشوفة للآخرين، لردمها،
الظلال التي تخلقينها ليس لها دالة على الليل.

عري الحقيقة

ليس لليأس أجنحة
ولا للحب أيضاً
ليس ثمة من وجه
لا أحد يتكلم
أنا لا أتحرك
أنا لا أراهم
أنا لا أكلمهم
لكنني حي أيضاً مثل حبي مثل يأسي.

* * *

لماذا أنا جميلة؟

لماذا أنا جميلة هكذا؟
لأن سيدي يحمّمني.

* * *

مجهولة، هكذا أفضّلها
تلك التي تشيل عني همّي كرجل
وأراها وأضيّعها وأتحمّل
ألمي، كما قليل من الشمس في الماء البارد.

إغواء

عبادة النظرات
تغوي العيون السيئة النظر،

محمَّرةٌ
العيون، ولها من المتعة على الخدين
ما تتمسك بهما على الدوام.

الذي يراها عذراء والذي يعرفها عذراء
عذراء بثوب من الحرير
يرى أيضاً، تحت جفنيها المتوّجين،
الفرحَ الساهر.
إنه الخجل، ثمة خجل دوماً،
لا
إنما فتح بيت
وإظهار وجه بشوش. . . ذلك ما أقصد.

راحة الصيف

[1]

ممدد على السرير، تغمرني الشمس بالغبطة
وما زال يغمرني حنانُ الليل

[2]

آهٍ، ملامسة الليل اللاحدّ لها
في جزر القلب الحارة

[3]

الطفلة اللافائدة منها
بدون مستقبل، بدون ذاكرة
الفائقة الغموض والمتأرجحة دائماً
تغزل لنفسها حجاباً من قهوة

تكشف حجاباً من دخان

وردة تنتهي أمام العيون
تحت شباك أناملها

وردة تنتهي تحت الشفاه
بسكون، تحت الشفاه.
وبأشد بهجة عرفت.

[4]

فات الوقت لقبلة بين النهدين
لكنها قالت إن لي قميصاً لطيفاً
جناحاً صغيراً للصباح
الذي تشله المداعبة

[5]

في رعد البلاط
يسيل النهار في الشارع
تتبرّج النساء
ويتهيأ الرجال
فثمّة ساحات كبرى لرجالي

نسائي معروضات فيها
والجميع مُلهَمون، الجميع غائبون
الجميع يواجهون الصحراء

[6]

تفاؤلاً ببستان العنبر
حيث أعيد الحصادَ
الحصّادين والحصّادات
كمعولٍ يمسّد
الأرضَ الجرداء الخامدة
أرض، أرض، رجاء وأرض.
لحمل جميع الأطفال
حصادون حصادات
بدون ماء، لكنْ معمّدون بالنار

[7]

تحت الشعلات والأقواس
يهرب جمهور
يهرب اللهب والبرودة
لأجل سنبلة واحدة نموذجية
أقوى من السماء النائية.

لحظة خاطفة

إنها ليست هنا.
المرأة ذات المريول تتأمل المطر على الشباك
والغيم يلعب إلى ما لا نهاية
ويزرقّ
الخد على كنبة مهترئة
والصمت في عذاب ضمير.
تبعثُ جدران شارع طويل
أحجار وبلاط وخضرة
طين وغيم ورمل
ظلال وشمس وماء
وكل ما يظهر ـ
دون أن أنسى أنها هناك
تتنزّه في بستان واسع
تتذوّق التوت الأبيض
ثلج ضحكاتها يجفّف الطين... ومشيتها مشية عذراء.

أريدها ملكة

قرية، مدينة، وصدى صوتي
الأذن المدهوشة تمحو السكوت
تصغي إلى لصوص الجوّ الجميل على السطح
وجرعات الريح والمطر.

إنهم يقبلون من البحر في اتجاه السماء
يتوقفون في منتصف الطريق
أصغي لأتعلم شرح أسباب
ما تسمعين
في الشارع
من رجلٍ يصنعون اثنين
ومن جميع النساء يصنعون واحدة
تلك التي أخاطبها الآن
اسمعي ها أنا أجيب عن كل كلامك، عن أوله وآخره
عن وشوشاتك عن صرخاتك

عن الينبوع والقمة
أجاوب حباً بلا حدود

قرية، مدينة، وصدى صوتي
يقصّب القرى، المدن، يقسّمها
حسب القاعدة الذهبية
ما هو جديد بالحب

ضد كل ما يلغيه

دونما تفكير بشموس أخرى
عدا تلك التي تسطع بين ذراعي
دون أن أسميك باسم آخر
عدا حبنا
أعيش وأملك بين جدران
أعيش وأملك خارج الجدران
على الغابات والبحر والسهول والجبال
وعلى الأعين وعلى الأصوات التي تتردّد
تسكنين عالماً لولاك لا أملك فيه شيئاً
قلبك الغافي ينسى كل شيء ما عدا قلبي.
في الخارج ذكرياتنا ليالينا نهاراتنا
تهزّ علاقتنا فلا تقوى على فصمها.

المتوحد الصالح

سأسمي جبينك
سأجعل منه محرقة على قمة تنهداتك
سأسمي انعكاساً للنور الألم الذي يمزقك،
مثل سيف في ستار من الحرير

إني سأهدمك أيها البستان الخفي
الممتلىء بنبات الخشخاش وبالماء النادر
سأوثقك بسوطي

لم يكن في قلبك إلا ومضات باطنية
سوف لا يكون في أحداقك إلا الدم

سأسمي فمك ويديك الأخيرتين
فمَك الصدى المهترىء، يديك العِملة الرصاصية
سأكسر المفاتيح الصدئة المتسلّطة

إذا وجب أن أرتاح عميقاً يوماً ما
إذا وجب أن أنسى بأني لم أنتصر
فأقله ستكونين قد عرفتِ عظمةَ حِقدي.

لدى أول كلمة شفافة

لدى أول كلمة شفافة
لدى أول ضحكات جسدك
يخف ثقل الطريق
ونعود إلى البداية

الزهرة الخجلى زهرة السماء الليلية
أياد موشحة بالارتباك
أياد طفلة

عيون مرفوعة إلى وجهك، إنه العيد
الفتوة الأولى المكتملة
اللذة الوحيدة

بيت من طين بيت من روائح وورود
بلا عمر بلا فصول بلا قيود. . .   والنسيان بلا ظل.

احتفالاً بذكرى

أعيّد الشيء الجوهري، أعيد حضورك الدائم، للحياة أوراق جديدة والسواقي الأشد فتوّة تتفجر في العشب الرطب

وبما أننا نحب الحرارة فالجوّ حار لكن الشمس لا تنفع الثمار، والألوان تحترق ومن ثمّ يمالق الخريف الشتاء البكر بشغف

الرجل لا ينضج، إنه يهرم، ولأولاده متسع من الوقت ليهرموا قبل أن يموت وأولاد أولاده، ها إنه يضحكهم

أنت الأولى والأخيرة ولم تهرمي ولكي تنيري حبي وحياتي تحتفظين بقلب امرأة جميلة عارية، هو قلبك.

* * *

واحدة بمقام الكل

واحدة أو أكثر،
ينام الفضاء على العاصفة
والثلج على العصافير
وضجيج الخوف في الغابات الشرسة

واحدة أو أكثر
في قش الطين زرعوا غرباناً
بأجنحة ذاوية ومنقار كالزلزال
لقد قطفوا ورود العاصفة الخيالية المغراء

واحدة أو أكثر
الوشاح الشمسي
هي حمرة الشمس اللامحدودة
على عنق أرض قفراء

واحدة أو أكثر
أشد تأثراً بطفولتهن
منهن بالمطر والصحو
أشد ضعفاً تجاه المعرفة
من الإغفاء في انحدار عذب
بعيداً عن السأم

واحدة أو أكثر
في مرايا مدللة
حيث أصواتهن صباحاً تتمزّق كرقاق النسيج
واحدة أو أكثر
مجبولات من حجر يتفتّت
وريش يتبعثر
مجبولات من أشواك، من كتان، من كحول
من ضحكات، من تنهدات، من إهمال
مجبولات من لحم ومن عيون حقيقية

واحدة أو أكثر
بكل نواقصهن وكل جدارتهن
كنساء

واحدة أو أكثر

بوجه متلبس بنبات الحلباب
مشوقات مثل خبز طازج
كل النساء اللواتي يفتنني
مزينات بما تمنّيته
مزينات بالاطمئنان
مزينات بملح بماء بشمس
بحنان بجرأة وبألف نزوة
وألف قيد

واحدة أو أكثر
في كل أحلامي
زهرة غاب جديدة
زهرة متوحشة ذات حزمة من الأعضاء الأنثوية

تتفتح في دائرة هذيانها الحارة
في الليل المخدوش

واحدة أو أكثر
فتوّة حتى التلاشي
صِبا مندفع قلق ومثقل بالضجر
تقاسمته هي معي
دونما اهتمام بالآخرين.

لست وحدي

محملة
بثمار خفيفة على الشفاه
محلاّة:
بألف زهرة متنوعة
مظفّرة
بين ذراعي الشمس
سعيدة
بعصفور أليف
مفتونة
بقطرة، مطر
أجمل
من سماء الصباح
أمينة
أتحدث عن بستان
أحلم... لكنني أحب حقاً.

في قلب حبي

عصفور جميل يدلني على الضياء
ضياء عينيها، المرئي بوضوح
إنه يغني على كرة من شجر الدبق
في وسط الشمس

* * *

الحيوانات وعيونها المغنية
وأناشيد غضبها أو سأمها
حرمتني الخروج من هذا السرير
سأقضي فيه حياتي

* * *

الفجر في بلاد بلا رحمة
يتخذ مظهر النسيان
وامرأة مضطربة، تنام في الفجر،
رأسها أولاً، سقوطها ينيرها.

أيتها النجوم
إنك تعرفين شكل رأسها
هنا، كل شيء يظلم:
المشهد يتكامل، دم في الوجنتين،
الأحجام
تتلاشى وتسيل في قلبي مع النوم
من سيأخذ قلبي إذن؟
أنا لم أحلم أبداً بأجمل من هذه الليلة
نساء البستان يعانقنني
الأشجار الراسخة كدعائم السماء
تعانق بشغف الظل الذي تتكىء إليه.

امرأة ضعيفة القلب
تضع الليل في ثيابها،
والحب يكشف الليل
فوق ثدييه الناعمين

كيف التمتّع بكل شيء؟
الأفضل محو كل شيء
وها هو الإنسان
صاحب هذه الحركات كلها

عن كل التضحيات وكل الفتوحات ينام
إنه ينام، ينام، ينام.

يحفر بتنهداته الليل الضئيل غير المرئي
لا البردان ولا الحرّان
لقد هرب أسيره ـ لكي ينام.
إنه ليس ميتاً، إنه ينام.

* * *

عندما أغفى
كان كل شيء مثار دهشة
كان يلعب بحماس
كان يرى
كان يسمع
وكلمته الأخيرة:
«إذا كان الأمر يتكرر، إذن سألتقي بك
دون أن أفتش عنك».

إنه ينام، ينام، ينام.
وعبثاً رفع الفجر رأسه
إنه ينام.

(قصائد ليدا)

1 ـ ليدا في إغفائها الأول

كنت أغفو ممددة على بطني
وكنت شاعرة به
السماء الثقيلة تسيل في نفسي
بألف بذرة من القمح الحي
بألفٍ من العصافير الجائعة
والتي تختبىء لكي تموت

* * *

الضجة والرائحة والنار كانت تطبق أجنحتها
في حنجرتي المسحوقة، في آبار يديّ

النار والبرد والفضاء كانت تشدّ كتفي
والخضرة ترتجف في دمي الحبيس

كنت أختنق بالشمس، وأغرق في الهواء النقي
يُلاشيني خطأ القلب والجسد.

* * *

ومن ثَمَّ كنت أحدّد السماء وأحبس بذلك نفسي
عميقاً أتألم من الوحل والحجارة
كل شيء مغمور بجذوري اللامتناهية
ومن جديد تعرفت على جهد ماضيّ القاسي

عميِّتي، جهلَي المدى،
والتقدم المنكر للجدران المتضاعفة

* * *

عيناي الجميلتان مفصولتان عن العالم
أين هم الموتى، أأنا حية

أريد إعادة العالم من جديد
وأن لا أكون ظلاً لظل

يا عينيّ الجميلتين إجعلاني منظورة
فأنا لا أريد أن أنتهي في ذاتي

2 ـ صورة تعود إلى
الذي حقّق وجودها

إنها تحلم، وبمن تحلم، بي أنا
من الذي يحلم في مخمل عينيها إن لم أكن أنا

ترتبط في عينيها الديمومة بالكائن الإنساني
وفي عينيها مملكتي تتآلف مع كل الممالك
وها هو العالم على طاولة التحولات.

* * *

نها لا تحلم بواحدٍ ما، بل بي أنا،
أنا، المسخ والفضيلة الحيوانية والأصل
كل شيء في السماء وكل شيء على الأرض
لكن فلتتعر حول رغبتي
فتصبح صاعقتي نداوة خصبة.

* * *

الأجسام الأرضية هي قواعد حكمة،
لقد اكتسبت الحق في أن تُحِبّ وأن تُحَبّ

وحده وهجَ شمس يستطيع أن يطفىء وهجَ شمس أخرى
وأنا لا وجه لي إلا للذين أحبهم

إني أخبط بأجنحة
إني أجن، إنني أنضب،
يهرم ريشي وها أنا أبيضّ كعظمة.

يعيش الفراغ عيني، أعود إلى بيضتي
فاتحٌ عاد إلى لا شيء، نحلة بلا عسلها
لكن خطّاً من الدم يواصل المعركة حتى النصر.

* * *

3 ـ ليدا أشد شراسة من الطبيعة

جسدي يستيقظ، إني فتية وجميلة
وأدندن لحناً من طفولتي

جسدي على سرير ناعم مثل عاشق
يرسم سماءً بنجوم شاهدها في الحلم

خسرني الجميع، فأنا لست لأحد
ومع هذا فأنا كمرآة متحركة
أضحك للانتصارات السهلة

نهداي أصبحا ناضجين للمداعبة
كجرس أمام إعصار مجنون
كخبز نادر أمام من لم يعد بجائع
أستطيع أن أحدّ قُدرة الآلهة وأن أخضع مخيّلتهم

وأن أكون فانية أعيد خلق نفسي
وأن أكون خالدة أهدم الزمن

سأحَمّر عندما يلفني البرد
وسأكون ثلجاً في اللهيب.

شفة على شفة، الليل، الفجر،
في أعلى فخذي تغني قبلة،
عناصر تحييني،
وجسدي ليس سجناً

متألّقة أنا في قعر الهاوية
ناضجة أنا في قعر الروض
عارية أنا في قعر البحر
عارية كلا شيء وأنا كلُّ شيءٍ في لا شيء.

شفة على شفة، الليل، الفجر،
إني أتكلم عن الجنس الذي أكونه
مثل بسمة بعد الدموع،
وكشمس بشرية بين ظلين.

مثل وردة ضعف

في موجة دمي السوداء،
قطب غير مجدٍ، شرفٌ أنقذ
شرف هو ابن المتعة

عابرة إلى النار، الزهرة الهشة
لا تتبدل بأكثر مما يتبدل فمي،
إنه مادة الساعات الجوفاء
الدورق الملآن رغبة،
إني أخطّ التضحية بالذهب
وأزيّن خجل الفسق،
إنني النافذة الكبرى حيث الرماد
يترك الخطّ واللون يلثغان

* * *

السماء تتبدّل، أنا لست خائفة، إنني أحلم
السماء تتبدّل وبحيرة جسدي
تبعث بجعة من غيوم صافية
بجعةً ثقيلة مبللة الريش

أحس بمنقارها، منقارها الوحشي

لها فمي ولي استقامتها

حتى نمثل جيداً في الفردوس الأرضي
في كل مكان، نهار صاف، ليل مدهش، صاعقة

يا للجسد الطيّب المرقّق بأجمعه
المأكول والغالي، إن لي معنى الحياة
تكلموا، تكلموا. إن لي معنى الصمت
كنت قد صدئت، لكنني أعود جديدة.

إنها جديدة للجسد الطري السماءُ الفاسدة
وهالة النور تحيق بأحداقي
أيها الحيوان البري لقد بدّلتُ سماءَك
حسب مشيئتي، لقد امتزجنا معاً،
إني ألد زوجاً مضاعفاً وأنا مع هذا وحيدة.

4 ـ ما لم تفكر فيه ليدا

إنني امرأة جاحدة
لست متلألئة بالعرفان
كثيرة النسيان ومتقلبة
امرأة حكيمة

إني أنفخ في الهواء فقّاعات كرمتي
فتعود لتنفجر لديّ
متبدلة اللون، من شمس ومن قمر هي،
إنها تبهجني

إنني الحياة ولا شيء غير هذا
يملكني أجدادي وأبي وأولادي

ضحكة أمي تنتهي إلى أبنائي
الكل يهيء مداعباتي

إني أسحرها هذه البجعة وألوي عنقها
فأنا أقوى منها
إنها ليست إلا إحدى حيواناتي
أو سنبلة من بذرتي

عيناي ولساني ورائحة جلدي
تُفلت عصافير أخرى في كل الآفاق
لم يقبلني في جبيني البريء أحد
إن أحداً لا يقبلني على جبيني

بالطبع يا وردتي البيضاء ما كنت إلا وسيلة،
ساقاي يحيطان بك وبطني يمنعك
أيتها البجعة المسكينة المثلجة
ما كانا جناحَيْ إلَهٍ جناحاكِ

إن لي أجنحة ناراً كلها.

ميديات

I

ستستيقظ من حلم أسود وأزرق
ستنهض من الليل الأغبر والخمري
مصقولة ساقها وكذلك قدمها العارية
فالجرأة قادت خطوتَها الأولى

على صوت أنشودة مضمرة
يخطر جسدها كله وميضاً وألقاً
جسدها المورّق بمطر، المسلّح بعطور ناعمة،
يمل مغزل حياتها، الصباحي.

II

بالقرب من زاوية الجسر الكبير

في ذروة الكبرياء
أنتظر كل هذا الذي عرفته
مغمورة بمدًى متذبذب
فذاكرتي لا حدود لها

ترقص الطيبة على شفتيّ
تضيئني أسمال باهتة
ومن جبهتي ينشق طريق.

قريباً وبعيداً
يقفز البحر ويحييني
ان له شكل عنقود
شكل متعة ناضجة

بالأمس كنت أحب واليوم أنا أحب
لا أهرب من شيء
فإن ماضيّ أمين لي
والزمن يركض في شراييني.

III

تحت صقالات بالية، تحت سقوف مجدبة
في غرفة واسعة، مفروشة بتواضع
تُبرز ركبتاها المتلاصقتان
الخطّ البائس المستقيم

مأخوذ شعرها في شرك مرآة مكسورة
إنما على طحلب جبينها يدندن الماء
والانحراف المتواري لابتسامةٍ، يجرّ
آخرَ وهمها إلى سماء ضائعة

IV

في أرجاء سريرها تزحف الأرض
وحيوانات الأرض، ورجال الأرض
في أرجاء سريرها
لا شيء سوى حقول قمح
ودوال وحقول أفكار،
الطريق مشقوق بلا أدوات
اليدان والعينان تقودان للسرير
للسر المضطرم المباح
للظلال المنحوتة حلماً

منفلتٌ من أصابع الهواء، الاندفاع
الإناء الذهبي لقلبة،
الحنجرة الثقيلة المتمهّلة
بألف حزمة متأرجحة
تصل إلى أعياد أزهارها

إنها تقدّم عشاً وجوعاً

جسدها عاشق عار
إنه يفرّ من عينيها
والضياء يعقد الليل واللحم والأرض
ضياء لا نهائي لجسد مهجور
ولعينين تتكرران

V

تحمل أخواتي في أقمشتهنّ
صرخات وشكايات الكلاب
أما أنا فأحب أن أتغذى
بأملٍ حميّةٍ لا تنضب،
شجرة برتقال سوداء، شِكّةٌ شقراء،
نحلةٌ غبراء، ضحكٌ في سباق،

ضحك مقنّع بقناع غير منظور،
قشرةُ فجر، جناحُ طائش،
أفراخ أوراقٍ داعرة،
سمٌّ فتيّ، جبلٌ مُعوسِج،
عَرَق السباحة، دخان بارد،
خطوة عملاق، رقصٌ عنيف،
جبين خالد، راحة يد رائعة
آبار مكشوفة، محورُ الريح،
بناء غامض، كراكيّ مجنون،
لعبة بلا خاسر، عافية بلا خروم.
شعلة تلتهب في الماء، دورةٌ مختلطة،
شهيد متألق ذو زوايا حادة،
عين صافية عبر خجل وضباب،
أول ثلج مبهج،
جَدارة الوَحدة،
منفىً ذو منابع قوّة.

VI

أين أنت، هل تراني، هل تسمعني
هل ستتعرف إليّ
أنا، أشدّ النساء فتنة، أنا الوحيدة
أمسك بموجة الساقية مثل كمان

أدع الأيام تمضي
أدع القوارب والغيوم تمضي
بجانبي ميّتٌ الضجر
أحضن كل أصداء الطفولة، كنوزي،
مع ضحكات في عنقي.

أفقي سعادة كبرى
ووجهي عالم صاف
ثمة من يبكي بدموع سوداء
من ينتقل من كهف إلى كهف
هنا يستحيل الضَياع،
ووجهي في الماء الصافي، إني أراه
يغني شجرةً وحيدة
يليّن الحصى
يعكس الأفق
إني أتكىء إلى الشجرة
أرقد على الحصى
فوق الماء أُطري الشمسَ والمطر
والريحَ الوقور

أين أنت، هل تراني، هل تسمعني
أنا الخليقة خلف الستار

خلف أول ستار أقبلَ،
سيدة الخضرة برغم كل شيء
سيدة النباتات التافهة
سيدة الماء، سيدة الهواء.
إني أهيمن على وحدتي
أين أنت،
من شدة حلمك بي طوال الأرصفة
أصبحت تراني وتسمعني
وإنك لتحاول تبديل قلبي
وأن تنتزعني من عينيّ.

إن لي قوة الوجود بلا مصير
بين جليد وندى، بين نسيان وحضور

طراوة، حرارة، لا يهمني ذلك أبداً
سأحاول أن أبتعد بنفسي عن رغباتك
إنها صورة نفسي تلك التي تهبني إياها
فلوجهي نجمة واحدة
عليك أن تتخلى عن حُبِّكَ لي عبثاً
إنني كسوف، وحلمُ ليل
فلتنسَ ستائري البلورية
إني باقية في أوراقي الخاصة

أظلُّ مرآتيَ الخالصة
أمزج الثلج والنار
حجارتي لها عذوبتي
وإن فَصليَ خالد.

VII

وبعذوبة شَفَتَكِ أسند شفتيَ.

ظلال

كنا اثنين نتدفأ ناراً واحدة
النار التي تلهب دم الغابات القطبية
والتي كانت ترفع الأوراق اليابسة نحو السماء
لهب كثيف في أسفل الأرض

يرقص في العيون أمواجاً في ما وراء النجوم

كنا اثنين لكي نتدفأ ناراً واحدة
مثقلة بالحب كالرصاص كالريش
في الألم وفي الفرح كنا شخصاً واحداً
اللون نفسه الرائحة نفسها والمذاق نفسه

نفس الأهواء نفس الطمأنينة نفس التوازن
سوية تتراخى حركاتنا أصواتنا

كنز ذاكرتنا غلافه واحد

وقبلاتنا كانت تتبع طريقاً متشابهاً
كنت أعانقك كنت تعانقينني كنت أعانق نفسي
كنت تعانقين نفسك دون أن ندرك من كنا.
كنت ترتجفين كلك بين يدي المرتجفتين

كنا ننزل المنحدر نفسه نحو نار الحضور ونار الغياب، نحو النار نحو هذيانها ونحو رمادها نحو نهاية وصالنا نهاية وصال الرجل بالمرأة.

كيف سيكون بمقدورنا أن نفكر منفصلين
نحن اللذين كنا نقضي نهاراتنا وليالينا حالمين
عاشقين لزمن مشترك، عاشقين لجسد توأم

ما كان شيء يتبدل معنى أو إشارة لكلينا
وفي طيات أنفسنا ظننا أننا نافعان

وفي طيات الشوارع لم نكن بلا فائدة كنا نصارع بلا فتور من أجل الحياة الأخوية كنا قد توحدنا جسداً مع الريح، مع الشراع مع الأمل المتفلّت لرجال بائسين هم نهاية كل شيء، يغنون ولادتهم

أنت أصبحت ميتة جداً وأنا وحيد جداً
مقطوع عشوائياً

إني مريض إني بردان إني أعيش برغم العدم، كما يرفض المرء عالمه وإذا لم يكن هذا من أجلك أنت التي عشتِ مثل كائن كامل، مثلما يجب أن أكون

فليس لي إذن حتى أن أحترم ظلالنا.

* * *

بدونك

شمس الحقول تنتن
شمس الغابات تغفو
السماء الحية تتوارى
والمساء يثقل على كل مكان

ليس للعصافير طريق
كلها جمود
بين بضعة أغصان عارية
حيث في نهاية الليل
يقبل ليلُ النهاية
ليل الليالي الشرس

سيكون البرد برداً على الأرض
في الكرمة الواطئة
ليل بدون قلق

دون أي تذكار من النهار
عدوّ غريب
مستعد لكل شيء ومستعد لكل البشر
إنه الموت غير البسيط وغير المزدوج

لأنه نهاية هذا الليل
حيث لا أمل يرجى
وحيث لا مغامرة بعد.

رسائل حب
إيلوار ـ غالا

مقدمة

العلاقة بين الشاعر الفرنسي پول إيلوار وحبيبته الروسية غالا (1859 ـ 1982) كما نكتشفها في كتاب «رسائل إلى غالا 1924 ـ 1948»، كانت، برغم العواصف والفراق والخلاف، وربما بسبب هذا كله، علاقة فريدة في تميزها، سواء على الصعيد الإنساني أم الصعيد الأدبي، للتأثير الكبير من هذه المرأة على الشاعر، وعلى كتاب وفنانين في الحركة السوريالية، ما جعل أندريه بروتون، زعيم الحركة، يصف غالا بأنها «المرأة الخالدة».

أسطورة عشق جديدة تضاف، في هذا العصر، إلى أساطير العشق لدى الشعراء. وإذا كانت هذه الأساطير ازدادت ندرة فإنها لم تتوقف في التاريخ منذ مجنون ليلى إلى «مجنون ألسا»، حيث طاب للشاعر الفرنسي أراغون أن يتشبّه بأسطورة الشاعر العربي القديم.

وتتميّز هذه الأساطير بأن الشاعر يصرف حياته كلها في هاجس امرأة واحدة.

وإذا لم يكن شعراء الأساطير الحديثة يكرسون كل شعرهم للمعشوقة، كما حدث للشعراء العذريين العرب، وإذا لم يحرموا من وصالها كما الشاعر العربي القديم (باستثناء أسطورة «ديك الجن» الحديثة العهد) فإن عدم التخصص وعدم الحرمان لم يؤثرا في روعة هذا العشق ووحدانيته واستمراريته وغناه.

وبرغم المحور الواحد فإن هذه الأساطير تتنوع بالتفاصيل، حتى في أسطورتين متزامنتين: فإذا كان أراغون وألسا عاشا كزوجين متحابين حتى فرّقهما الموت، فإن إيلوار وغالا افترقا بعد الزواج، واستمر حبهما حتى قطعه الموت، وقد يبدو غريباً في هذه الأسطورة أن نرى غالا (حين كانت تتهيأ للاقتران بآخر هو سلفادور دالي) تسأل إيلوار لماذا خفّ حبه لها وقلّ اهتمامه بها؟ فيجيبها إيلوار (الذي كان يتهيأ للزواج بأخرى هي نوش) بأنها ستبقى الوحيدة في حياته وإلى الأبد.

إنها أسطورة حب لم يكن في الإمكان اكتشاف تفاصيلها، بعد احتراق رسائل غالا إلى إيلوار في الحرب، إلا باكتشاف رسائل إيلوار إلى غالا بعد وفاتها 1982، وكانت خبأتها ثلاثين عاماً منذ وفاة الشاعر (1952)، عند ابنتهما سيسيل.

وهنا أحاول إلقاء الضوء على هذه الأسطورة عبر الرسائل المتبادلة بين إيلوار وغالا في مجلدين بعنوان «رسائل إلى غالا 1924 ـ 1948»، الصادرين في منشورات «غاليمار».

* * *

272 رسالة من پول إيلوار إليها و15 رسالة من غالا إليه، وهي كل ما تبقى من رسائلها إليه مذ أحرق مجمل هذه الرسائل أثناء الحرب كما سنعرف من إحدى رسائله إليها.

تبدأ قصة العشق هذه عندما يتعرّف شاب اسمه پول ـ أوجين غريندل (سيعرف في ما بعد بـ پول إيلوار) إلى فتاة روسية هي هيلانة ديمتريفنا دياكونوفا (التي ستحمل حتى وفاتها اسم «غالا» كما أطلقه بول عليها) وكان ذلك في مصح للأمراض الصدرية في مدينة كلافاديل في فرنسا 1912، وكانا يتعالجان من إصابة بالسل، وكانا آنذاك في عمر واحد: في السابعة عشرة.

وكان شفاؤهما. وتعود هي إلى روسيا وينخرط هو في الجيش مع بداية الحرب العالمية الأولى. وقبل أن تنتهي الحرب تلتقي مجدداً بپول، وتقيم في بيت أهله الذي كان يزوره كلما سنحت له الفرص، ثم يتزوجان في نهاية الحرب (1917)، ويرزقان ابنتهما الوحيدة سيسيل العام التالي.

وكما تقول هي في إحدى رسائلهما كانا من طينة واحدة، وهذا ما سوف يجمعهما، فهي امرأة فريدة بين النساء كما تقول عن نفسها، وهو فريد بين الرجال كما تقول عنه، عاشا حياة فريدة أيضاً، بتواصلهما أم بفراقهما ودون أن تنطفىء في الحالين جذوة حبهما.

وإذا كان الكتاب لا يكشف عن وجه هذه الحبيبة إلا عبر

رسائلها الأولى إليه لإتلاف رسائلها الأخيرة، فإن تلك الرسائل كافية لوصف الشخصية الفريدة التي سيكون لها تأثير كبير عبر إيلوار مكتشفها، على العديد من السورياليين، وسوف يصفها بروتون في إهداء كتابه المشترك مع إيلوار «الحبل بلا دنس» بأنها «المرأة الخالدة»، وبسببها ضرب ماكس إرنست صديقه إيلوار على عينه فأدماه، وهجس فيها الشاعر كريفيل قبل موته. وأهدى إليها رينه شار بعض قصائده. وأغواها سلفادور دالي بالبذخ الذي كانت ضعيفة إزاءه فارتضت أن تكون لعبته، دون أن تكف عن حب إيلوار الوحيد الذي وهبها كل قلبه كل حياته. وسيردد في غالبية رسائله بعض عباراتها إليه. وسيظل يناديها بصغيرتي وابنتي. وهي كانت تخاطبه هكذا، كما سيسميها «زوجتي مدى الدهر»، وهي اخترعت له تسمية «زوجي مدى الدهر» حتى قبل أن يتزوجها. وعبارات كثيرة أخرى كتب من وحيها وعاش في دوامتها. ولم يقتصر تأثيرها على شخصه بل طال إلى إنتاجه الشعري. ويعترف هو لها بأنه لم يكن ليكتب ما كتب لولاها، وأنه لا يعتد بكل النقد ما لم يكن منها. وهكذا لم تكن ملهمته في القصائد التي كتبها مباشرة لها، بل في مجمل ما كتب من شعر. وسنكتشف تفاصيل هذه العلاقة الفريدة أولاً عبر رسائل إيلوار إليها عاماً فآخر.

رسائله إليها

رسائله لم تبدأ إلا بعد بداية الفراق. ففي أولى رسائله يشرح المعركة مع الرسام ماكس إرنست في بيت أندريه بروتون حين كانت هي مسافرة: «لقد تجرأ وضربني الخنزير ماكس وتورّمت عيني، وما عاد في استطاعتي أن أخرج في الشارع. ليس الأمر مهماً. لكنني، إذ سكتُّ عنه ولم أنتقم منه، فلأنني فكّرت فيك. لا تخونيني... كنت أريد أن أقتله إلا أنني أدركت أن هذا سوف يسبّب العذاب لك».

وفي الرسالة الثانية من العام نفسه 1924: «يا جميلتي، يا معبودتي، إنني أموت ضجراً بدونك. كل شيء حولي فارغ. ليس إلا ثيابك أقبّلها... أنت الوحيدة، وإنني أحبك إلى الأبد. كل ما يصيبني من تعاسة أو ألم يهون إزاء حبك، حبي، حبنا. عندما تعودين سأزينك بأجمل ما أستطيع».

وفي رسالة لاحقة: «أحبك، أحبك، أحبك، أحبك، لا أحب سواك، سترين كم سأدللك، أحبك... أقبلك في كل مكان».

وفي رسالة من 1928:

«عندما أعود إلى أروزا لن تكون عودة إلى أروزا بل إليك، إلى حبي، ليس لي سوى رغبة وحيدة: أن أراك، أن ألمسك، أن أتأملك، أن أمدحك، أن ألمسك، أن أقبلك. أن أتحدث إليك. أن أحبك، أن أحبك وحدك، أجملهن، وفي كل النساء لا أرى غيرك: كل المرأة، كل حبي العظيم، البسيط...».

ومع الرسالة التالية، ملامح الانفصال الجسدي بينهما الذي سيسبق الطلاق بثلاث سنوات: «كانت سهراتي الأخيرة حاشدة، لكن بدوك لا أعود أرى زجاجاتي الملونة، ولا حبات الزمرد والنهار والحب. ومن كل ذلك لم أحصد سوى الخيبة اللامتوقعة، حتى حدود الانتحار. الجمال لا يأتيني أبداً بدون الحب. بدون الحب كل شيء يضيع، كل شيء ضائع، ضائع تافه، مليء بالزعبرة وبالسموم التافهة والمنحطة. لا توجد حياة، يوجد الحب فقط. سأحاول أن أسافر إلى برلين، لملاقاة تلك المرأة التي لا أكاد أعرف كيف أتكلم إليها. أيكون في مقدورها أن تعيد الحيوية إليّ، أتستطيع أن تمنحني فرصة النظر إليها كأكثر من مجرد لعبة، أو تمثال، أحاول أيضاً هذا لأتأكد من أمر: لم يكن في استطاعتي أن أنفعل إلا معك أنت، وبحبك أنت، بأفراحك، بآلامك. يا صغيرتي غالا أحبك بلا حد. لا أؤمن بالحياة، لا لا أؤمن إلا بك. هذا العالم الذي هو عالمي والممزوج بالموت لا أستطيع أن أدخله إلا برفقتك. أن لا أكون إلا بين يديك، بين عينيك، بين نهديك، بين ساقيك، أنا مدعو حيث لا أرتوي أبداً. كل ما تبقى ليس إلا بؤساً عظيماً لا يحلم بغير الانهيار، وليس فيه ما يطمئن إليّ. إنني في غاية الحزن، ومضعضع... لن أذهب اليوم إلى الموعد الذي أعطيته لهم. إذا كنت أذهب غداً إلى برلين فإنما لكونك أنت تؤمنين بالحب، وأنا لا أريد أن

أكذب. غالباً وجدت في حبي مجالاً لنزوات نحو نساء بعيدات جداً عنك، لكنها تزداد صعوبة لي مع الوقت. أيكون في استطاعتي أن أجرّب حظي مرة أخرى؟ إنني لا أذهب إلى برلين إلا لكي أعرف ذلك، إذا فشلت كان لديّ ما أعلمك به، ما أتطلبه منك. وفي أي حال إذا وجدت مانعاً أخبريني فلا أسافر إلى برلين في استطاعتك أن تعلميني بالبريد أو ببرقية (وهذا أحسن). سآخذ قطار الظهر. لا تتردّدي في الطلب مني إذا وجدت رغبة في نفسك. أنا أيضاً أخشى هذه الرحلة أرغبها وأخشاها، وأخشى ما أخشاه أن أشعر بأنني تقدمت في السن، وبأنني فقدت حيويتي، استهلكت حياتي باكراً. وأحبك كثيراً أقولها بإيمان وأنقلها من حلم إلى حلم. ولا تعجبي إذا قلت لك بأنني هجرت عالمي إلى عالمك. تأملي نفسك في المرآة، تأملي عينيك اللتين أحبهما، نهديك اللذين أعبدهما، وذاك الذي يأسرني، يديك الجميلتين، اسمعي نفسك تتكلمين. افهمي ما تقولينه يا صديقتي الوحيدة، لما لا أفهم إلا لغتك؟ لماذا أترك لك حريتك؟ أي فرح أستمد من فرحك. لماذا أحبك قوية جريئة ولا أعمل إلا مشيئتك، التي هي مشيئتي، التي يا لجمالها، ترعرعت، كمشيئتي، من حبنا كله».

وفي مكان آخر ن الرسالة:

«لن تري بطاقة الرحلة إلا في اللحظة الأخيرة، عندما لا أعود آمل أن يصلني منك أمر بالرفض».

لكنه أمر لا يصل ويسافر بول إلى برلين حيث يصاب بالخيبة والمرض، كما ينضح من رسائله إليها من هناك ويقول في إحداها:

«أحبك، أحب أن أراك فوقي لأشعر بأنني موجود. أحب أن أحس بساقيك تحيطان بجسدي. أنا لا أحب حقاً سواك...».

وفي رسالة أخرى من أيام تلك الرحلة، ومن ميونيخ هذه المرة: «كم أنت محظوظة أن يكون في استطاعتك أن تستثاري من الآخرين بسهولة، أما أنا فلا أستثار بكليتي إلا منك...».

ومن أولشتادت يبلغها: «أنا في غاية التعاسة، لأن حبي أكبر مني».

ومن ستراسبور:

«أنا لا أنساك لحظة واحدة».

ومن لوكارنو في سويسرا:

«أنا لا أكون شيئاً إلا معك».

ثم في باريس: «أعبدك!».

لكنهما من الآن لن يلتقيا لسنوات لأن غالا (1929) سوف تلتقي بسلفادور دالي في قادش، ويروي لوي بونويل الذي شهد ذلك اللقاء في كتابه «تنهيدتي الأخيرة» أن دالي هرع إليه حين تعرف إليها ليقول مسحوقاً: «ها جاءت امرأة خارقة».

ودالي نفسه ردّد مراراً وقعْ التقائه بغالا، وأنه، قبلها، أي قبل غالا، لم يعاشر امرأة، (وبونويل متأكد من ذلك)، لكن

غالا لا توحي بأنها قطعت حبها لبول، برغم المرارة التي سنقرأها في رسائل پول إليها وشوقه الدائم التأجج، وحسرته على غيابها الدائم ما عدا رسائلها. والأغرب، أنه مع علمه بعلاقة زوجته بدالي لم يفتر حبه لها، وكأنه كان متأكداً أن دالي مجرد نزوة من نزواتها التي عوّدته عليها، لذا نراه يكرر سلامه إلى دالي في رسائله إليها، ودالي خاصة ذلك الحين كان عضواً فعّالاً في الجماعة السوريالية التي أصدرت في باريس مجلة «السوريالية في خدمة الثورة» وكان دالي من كتّابها ورساميها ولو عن بعد.

وفي الرسالة 69 في 1930 يقول لها:

«كنت مريضاً عندما وصلتني رسالتك. وها أنا أنهض من فراشي، وسأخرج، تعلمين أنني أؤمن بك، إنني أؤمن بك، أؤمن بك. لا شيء ضاع، رسالتك شفتني. رسالتك، رسالتك، رسالتك، رسالة من غالا... متى تعودين يا صغيرتي، الآن أنا في حال أحسن، اكتبي لي. أقبلك في كل مكان».

وعندما تسأله في رسالة جوابية في ذلك العام ألا يزال يحبها، يقول «اطمئني، أحبك دائماً».

لكن بول لم يكن متأكداً أنه سيتحمل هذا البعاد الذي يزداد بينه وبينها:

«أنا لا أستطيع أن أعيش إذا لم تكوني لي. لا أنقطع عن التفكير فيك. لو معي المال الكافي للحقتك إلى إسبانيا. ماذا

أفعل بكل هذه الذكريات التي تحيط بي في كل شارع وكل زاوية. ماذا أفعل بأثوابك، برغباتك التي لا تزال تحوم حولي، بإغفاءاتك بأحلامك. بكل هفواتي، وما كنت أحاول أن أصلحه منها.

لو أستطيع أن أضمك أيضاً بين ذراعي، لكنت عدت ذاك الذي كنته في أوقات سابقة. إنني أعبدك. وليس إلاك حتى النهاية: هل تعلمين أن ماياكوفسكي انتحر؟ قيل إنه انتحر حزناً على حب ضائع، وتزوجت تلك المرأة التي أحبها بدبلوماسي بولوني. ولم يشر في الرسالة التي تركها إلى هذا، وكان قال قبل أن ينتحر للمرأة التي هي أخت ألسا: «ليلي، أحبيني». تعرفين بكيت عندما قرأت هذا. وأيضاً المرأة التي مع بروتون هجرته مدعية بأنها امرأة وليست طفلة.

ألسا حطمها موت ماياكوفسكي فأعطت بذلته إلى رينيه شار، لأنها على قده تماماً.

كريفيل عاد إلى باريس في حالة مأساوية. اكتبي له...».

وفي الرسالة 80 يقول: «اسمحي لي أن أشك في جدية المرض الذي تقولين أنك تعانين منه، وأنه هو يمنعك من المجيء إليّ، لكن اعلمي يا صغيرتي أنني لا ألومك بل أرغب أن تكوني حرّة تماماً في تصرفاتك، أن تكوني سعيدة».

وفي رسالة لاحقة: «كوني صافية وقوية لأنك محبوبة... كل شيء نقيّ لديّ بسبب حبّي لك».

ولكن كل ظنونه السوداء لم تكن لتقف حائلاً في طريق حبه لغالا. فها هو يعاود:

«إنني شديد التأنق ومظهري جميل للغاية. أحلم بك كل الليالي، قولي لي، هل أنت مثلي، تشعرين بأن لا شيء سيأخذ مكان حبنا، غالباً أشعر بالفزع الشديد. أحبك بعنف... أنا أشغل الآن الغرفة نفسها في الفندق نفسه الذي قضينا فيه تلك الليلة في كان. أنا شديد الحساسية تجاه ذكرياتنا، أشاهدك هنا عارية في كل مكان...»

ثم في نهاية 1930 تفاتحه غالا بضرورة الطلاق لكنه يستمر على حبها ويبدو واضحاً في رسائله منذ تشرين الأول:

«أشعر أني وحيد، نمت باكراً لأحلم بك. وأشعر بالوحدة إلا أنني لا أكفّ عن التفتيش عن أسباب للأمل، بعد أن كنت في السابق أفتّش عن أسباب لليأس. ربما وجود نوش (سوف تصبح زوجته الثانية) قربي، يجعلني أتحمّل هذه اللحظة التي نستعد فيها للطلاق، ويمنعني من الشعور الفظيع بالوحدة، لأنني متأكد أنني لن أستطيع أن أعيش بعد مع امرأة كما عشت معك، ليست نوش، سوى واحدة من النساء. إنني أحبك يا غالا. أحبك منذ شعرت بالحب، ومذاك قولبت نفسي مع رغباتك وأحلامك وطبيعتك.

آمل أنني أستطيع أن أحفظ لك سرب الحنان والرغبات والآمال والحب الخالد الذي أنت في حاجة إليه، والذي للأسف عوّدتني عليه، وأضحك من طلبك إذ تسألينني ماذا يجب أن آخذ من أغراضي التي لديك. إنها، أغراضي تلك، أسباب للبقاء معك. فلماذا لا تتركين كل شيء قربك، حتى

إذا ذهبت لأراك ذات يوم وجدتني محاطاً بالأشياء التي لم أحبها لولاك...».

ثم نلمس من جديد غرابة الموقف، فحين هي تطلب الطلاق من إيلوار لتتزوج دالي تعاتبه، كما نفهم من رسالته الجوابية إليها، لأنه لم يعد يحبها. وكان ذلك في مطلع 1931 فيكتب:

«عزيزتي غالا، الحق أنني لست في حاجة هذه الأيام أن أسمع عتابك لي إنني لم أعد أحبك أو أهتم بك.

وإذا كنت تأخرت في الكتابة إليك فلأنني كنت مشغولاً بالتنقّل من مكان إلى آخر، غيرت عنواني ثلاث مرات في أسبوع واحد... سأحبك دوماً تأكدي من هذا».

وفي الرسالة 105 هذه القصيدة:

«أيتها المرأة التي عشت معها
المرأة التي سأعيش معها
أيتها المرأة نفسها
يلزمك معطف أحمر
وكلسات سوداء
وإثباتات
لرؤيتك عارية
العري النقي يا لزينة المظهر
صدرك آه يا قلبي».

وفي رسالة لاحقة:

«أنت الينبوع العجائبي لخيالي وحريتي، إنني أعبدك».

وفي أخرى:

«هل تعتقدين حقاً بأن حقيقة المشاعر هي عكس حقيقة الأحلام؟ إذن أنت تحبينني كما لا حب من قبل. أنا لا أفكر إلا فيك، ولا أستطيع أي شيء بدونك. وأهذي لمجرد تفكيري فيك... أنت الكون الحساس، الشهواني، حيث يتألق كل جمال، حيث العالم، كل العالم يصبح جمالاً، وكل الجمال يظهر، إنني أعبدك يا شمسي. أنت لي إلى الأبد».

وفي الرسالة 111:

«قوة عينيك تحميني من الانهيار».

«يا صغيرتي الحلوة العزيزة غالا.

تخطئين حين تبتئسين في صددي. عندما أكتب لك بأنني أحبك كما تحبينني، فيجب أن تفهمي أنني آمل أن تحبيني كما أحبك. أنا لا أجد مكاناً لليأس. أنا لا أستطيع أن أذهب إليك، ولا أن أرتاح، ولا أن أعمل. انتبهي لنفسك، واعلمي أنت الكثيرة الشك أن حياتك وصحتك وسعادتك هي كل ما تبقى من أسبابي للعيش. بدونك، على هذه الأرض، بدون كل ما جمعنا لا يوجد شيء».

وفي الرسالة 128، وكانت غالا تزوجت دالي: «أشكرك على رسالتك. منذ الآن سأكتب إليك كل يوم لأنك كل ما يربطني بعد بالحياة، حتى ولو من بعيد، للأسف... وقد لا تعلمين أنني لا يهمني من الناس سوى الذين يحبونك..

طلبي الوحيد إليك إذا شئت أن تعزيني على فراقك أن تكتبي إليّ بقدر ما تستطيعين كما أفعل أنا اليوم وأبداً. بالأمس شاهدت راقصة عربية في فيلم ترقص عارية، وكانت تشبهك، فاستبد بي الحنين إليك. هل تعلمين أنني ما زلت ذاك الذي عرفتِه للمرة الأولى، لكن أقل أملاً وأكثر حزناً».

وفي الرسالة 144:

«انشغلت عنك بعض الشيء بكتابي الذي سيخرج قريباً وهو مليء منك، لذا أفضّله على كتبي الأخرى (المقصود كتابه «الحياة المباشرة»). قريباً سنجتمع ولأننا لم نفقد تذوّق أحدنا للآخر فسنعود كما كنا. إنني أحلم بثدييك، بعينيك، ببطنك الرائع يا حبيبتي».

وفي الرسالة 152:

«إذا ذهبت إلى قادش في أيلول آمل أن تكوني هناك. سأذهب وحدي. يخيل إليّ أنني أستطيع مضاعفة عملي الكتابي إذا كنت إلى جانبي. أعبدك يا غالا، كوني جميلة. كوني هادئة، أحبك كما في الأمس. أنت حياتي الوحيدة. أكتبي لي دوماً، ولو قليلاً، لكن دوماً».

وفي الرسالة اللاحقة:

«يا امرأتي الجميلة، لا يجب أن نندم على شيء. أما عن حزني فإنه ولد معي، فلا تبتئسي لذلك. لم يكن حبي لك خلاصاً، لكنه في الأقل الشيء الثابت والأكيد في حياتي. كل

ما عداه كذب ضروري أو غير ضروري. أول فكري وآخره أنت. بدونك لا أعود أفكر إلا في الموت».

وبعد زواجه من نوش يكتب إلى غالا:

«بالأمس حلمت أنني استعدت ذلك البيت القديم الذي كان لغونون في شارع ليون. وإننا نلتقي فيه غالباً. وحلمت أنك هناك وسط كنبة واسعة، قريباً من المدفأة وأنا قربك أنشج كطفل. ها أنت عدت. سنعود للعيش معاً. سنستعيد حلم شبابنا، وحولنا الكتب والرسوم. وأنا أذهب لأشتري لك أسماكاً وفواكه وكل ما ترغبين، وسأكتب إلى نوش عن الأمر. لكن ها هي نوش قربي تسألني ماذا أفعل، فأقول لها إنني أكتب إلى صغيرتي غالا.

هذا الصباح فكرت فيك كثيراً. غصت في حياتنا نحن الاثنين وتأكدت أنني أسأت التصرف، فلم أتحوط كثيراً لكي لا أفقدك، إنني أنتظر معجزة تعيدنا إلى بعضنا، لأننا كنا لبعض وسنكون دوماً.

عزيزتي غالا لا تيأسي من الحياة. سأعمل كل ما أستطيع لاستعادتك، لم يتبدل شيء في حبي لك، فلم أفكر لحظة أننا مفترقان. أنت ما زلت زوجتي، وإلى الأبد».

في الرسالة 167 العام 1933:

«كل ما قلته في رسالتك أقوله أنا أيضاً وأفكر فيه. عندما أستيقظ وعندما أنام وكل لحظة أردد في نفسي اسمك: غالا، يعني أحبك يا غالا، منذ عشرين وأنا أحبك. ويستحيل أن نفترق. وإذا ما وجدت نفسك ذات يوم حزينة ووحيدة وجدتني

إلى جانبك. . . ذاك أنني برغم الانعطافة السيئة لحياتي لا أستطيع أن أتصورك مهجورة. وإذا كان لنا أن نشيخ فلن نشيخ منفصلين. إنني متشائم أحمق لكنني أعيش من أجلك. فإذا تنكّرت للحياة ذات يوم تكونين أنت السبب. أو الأصح سيكون حبي اليائس لك هو الذي سيقتلني. إن فخري الوحيد سعادتك، حياتك، أشياؤك. أزهارك، ألعابك، غنجك، غرامياتك يا غاليتي، عندما كنت شريراً معك فلأني كنت مغروراً لا يقنع، إنني فخور كملك بكلامك الحلو عن شعري. إنه المديح الوحيد أهتم له، ولأجلك سأنكب من جديد على الكتابة. . .».

وفي رسالة لاحقة:

«هذه الليلة وجدتني بين فرقة عسكرية مستنفرة ولمحتك بين العساكر أسيرة في مكان يشبه الحصن. كنت بسيطة الثياب تخفين تحتها رزمة، فأشرت إليك أن ترمي الرزمة وأن تسرعي بعد ذلك هاربة. ولدى اقترابك مني تأبطتِ يسراي بينما كنت أحاول أن أشق لك طريقاً ببندقيتي إلى بوابة الحصن، التي كانت مغلقة لسوء الحظ فلم يكن من طريق أخرى سوى البوابة التي حولها العساكر. هكذا عدنا، متخفيين بين النسوة وكنت قلت للحارسة إنني أقودك إلى الضابط، فأعطتني الحارسة كلمة السرّ، وهكذا مررت بك أمام العساكر من حراس وضباط، وما أن تجاوزت البوابة حتى جعلتك تركضين نحو حريتك، بينما أنا بقيت في الحصن، وعزائي أني خلصتك. . . واستيقظت متفائلاً. . .».

وفي الرسالة 172:

«أنت لي ينبوع هواء، غصن كرز مزهر...».

وفي الرسالة 175:

«أيكون لي القوة على الهرب؟

لا أعتقد. أنا ألفتك، أنا ألفت السعادة التي شئتها لك، رسائلك مدهشة. كوني لطيفة أكثر أيضاً...».

وفي الرسالة 176:

«... أحاول أن ألحق صباي دون أن أدركه. أعيش مع نوش في مونتيلينيون. عندما لا تكونين معي أفضّل العزلة. نوش لطيفة، سهلة... إن علاقاتنا تكبر فيها عاطفة الصداقة ويخف فيها الحب. إنها مفارقة في الإرادة، إن الإنسان إذا لا يستطيع أن يعيش مع من يحب، يعيش مع آخر. مفارقة تحرمني كل حرية...».

وفي الرسالة 183:

«أعتقد أنه لا يعنيك الماضي، ولا أنا أيضاً يعنيني، إلا ماضينا...».

وفي الرسالة 197:

«أنت التي أمليت عليّ كل قصائدي...».

و«لم يعد لدينا ما نبتكره

وها نحن في كل مكان».

وفي نهاية العام 1938 نقرأ في رسالة:

«عودي بسرعة. عندي الكثير لأخبرك، أحبك...».

وفي 1939 من رسالة:

«أنا لا أنساك ولا لحظة.

إنني أحلم...».

وفي رسالة أخرى:

«لا تتركيني أبداً.. إنني ألقي جسوراً كبرى على الحياة، لكن أنت منطلقي. ليست هي الحروب التي تستطيع أن تفرقنا. وإنما هذا الشقاء الذي في داخلنا والذي يجب أن نقتله. إنما نحن نحب لنستطيع أن نعيش، اكتبي لي دوماً يا صغيرتي».

ومع انفجار الحرب العالمية الثانية يقول لها العام 1940 في رسالة:

«أحبك يا غالا، لن أنساك أبداً، مهما حصل...».

وفي العام 1946:

«ما زلت كما عهدتك فتية وجميلة. ارسلي لي صورك دوماً...».

وفي العام نفسه أيضاً: «أخشى عندما تريني أن تلاحظي كم تقدمت بي السن. قد لا أكون الآن أعرف أن أضحك كما في السابق، لكنني قادر أن أجعلك تبتسمين في الأقل، حتى لو عن بعد يا صغيرتي الحلوة، حتى ولو في تلك الأماكن التي شاهدَتنا معاً ولم نعد نستطيع ارتيادها، أتساءل متى نلتقي؟...».

وبعد وفاة زوجته نوش يكتب لها في 1947:

«كم أود أن أذهب إليك، لكن قبر نوش هنا يشدني إلى مكاني...».

وفي الرسالة الأخيرة في شباط 1948:

«أه يا صغيرتي كم أود أن أراك...».

رسائلها إليه

وإذا كنا عرفنا من رسائل إيلوار إلى غالا بعض سمات الوجه الذي رسمه الشاعر لحبيبته بقلمه، فسنعرف هنا سمات أخرى لهذا الوجه من خلال رسائلها هي إليه، وإن اقتصرت تلك الرسائل القليلة على الفترة الأولى من تكوين تلك «المرأة الخالدة».

أول ما يلفت في رسائل غالا أنها تصحّح الصورة التي توحي بها رسائل إيلوار عن عدم الإخلاص المتبادل الذي بدا وكأنه طبيعي في هذه العلاقة، حين نكتشف في رسائل غالا تلك الغيرة الفظيعة التي كانت تؤرق إيلوار من ماضي غالا، وكانت هي تحاول جاهدة أن تلغيها من ذهن إيلوار، وتجعلها ممحوة من ذاكرتها.

كانت هذه الغيرة حادة فتضطر غالا أن تكرّر في كل واحدة من رسائلها إليه تهدئته حول هذا الموضوع، جواباً عن أسئلة كان يكررها هو في رسائله إليها، سابقة لزواجهما، بل أكثر من ذلك كان إيلوار، كما توحي رسائلها، لا يتقبّل بسهولة «إباحيتها» في علاقتها به فيجعلها تؤكد له في رسائلها أنها لم «تفعل ذلك» إلا معه، وأنه أسلوبها في التعبير عن حبها.

هذه الصورة ستختلف كثيراً في رسائل إيلوار ما بعد الزواج

والفراق، حتى أن إيلوار في إحدى رسائله لم يتورع عن وصف حلم يرى فيه غالا تداعب رجلاً آخر في حضوره وهو غير مكترث، ويكاد يكون مستأنساً، وهذا يجعلنا نستنتج أن غالا هي التي غيرت في إيلوار وليس العكس. أي أنه هو، لضعفه تجاهها قولب نفسه على طبيعتها، أي أنه عندما كان يخونها بعد ذلك إنما ليتساوى بها، اعتقاداً منه (وهذا استنتاجي الشخصي) أن هذه المساواة ستجعله أقرب إليها، مع تحفظه الدائم والصريح أيضاً عن هذا الأمر. والدليل اعترافه لها بأنه أقل استجابة لامرأة غيرها مما هي لرجل غيره.

وعندما يبّلغها مرة في رسالة أنه ذاهب إلى برلين للقاء امرأة هناك، يختمها بأنه لن يذهب إذا طلبت منه هي أن لا يفعل، وكأنه افتعل ذلك اللقاء مع الأخرى ليتقرّب إليها هي، ولم تجد هي غضاضة في ذهابه. ما يؤكد أن الانحراف في طبيعة هذه العلاقة هي حدّدته بمسلكها وليس هو الذي شجعها عليه، أي أنه تطور انسجاماً مع طبيعتها، وإن حاول أن يجعل هذا التطور وكأنه من ذاته. وليس أدل من قوله لها بعد ذلك: «إنني ألفتك، ألفت السعادة التي شئتها لك». أو «أنا لا أعمل إلا مشيئتك». وأيضاً: «قولبت نفسي على رغباتك وأحلامك وطبيعتك». وهنا يظهر بوضوح تأثيرها الكامل عليه. وأنه، عبر علاقته بها، هو الذي تغيّر لينسجم مع طبيعتها وليست هي التي تغيرت لتنسجم مع طبيعته. وهكذا من الغيرة المحمومة عليها، صار يحب الآخرين الذين تحبهم، كما يصرّح لها، حتى رفض

أن يرد على ماكس إرنست، صفعته، خشية أن يؤذي مشاعرها هي، فيقول «إذا سكتُّ عنه ولم أنتقم منه فلأنني فكرت فيك... كنت أريد قتله إلا أنني أدركت أن هذا سوف يسبب العذاب لك».

وهو ما حدث بعد ذلك مع سلفادور دالي الذي أغراها بحياة البذخ التي لم يكن لإيلوار أن يؤمنها لها، وكانت صريحة معه منذ البداية حين اعترفت له بضعفها تجاه البذخ كما كانت اعترفت له بضعفها تجاه الإباحية التي تقارب الفجور، ثم أنكرت المعنى الحرفي لهذا الاعتراف عندما شعرت أنها صدمته.

قد يُردّ انسحاقه بها إلى ضعفه إزاء رغبته في حب مستحيل. وهو يعترف بأن «حبه كان أكبر منه». لكن عظمة هذا الحب أنه حوّل إنساناً من الأنانية إلى الغيرية، ومن الرغبة في التملك إلى رغبة في التحرر، «إن فخري الوحيد هو سعادتك، حياتك، أشياؤك، أزهارك، ألعابك، غرامياتك...». أو يتساءل: «لماذا أترك لك حريتك؟ أي فرح استمد من فرحك؟». والجواب أنه يستمدّ الجمال. «فالحب عنده هو الجمال»، وربما من هنا لقّب أندريه بروتون تلك المرأة بأنها «المرأة الخالدة»، تلك التي تزيّن الحياة، وتجعل الجمال حقيقة معيوشة. وربما هذا ما أضعف غالا تجاه إيلوار وما حفظ لتلك العلاقة استمراريتها ونكهتها المميزة في تاريخ الحب لدى الشعراء، فلسنا نجد مثيلاً لها في أية علاقة حب

سابقة ينفصل فيها الحبيبان بإرادتهما ويظلان يتبادلان الحب الروحي والجسدي: هو لا يرى امرأة غيرها، وهي لا ترى حبيباً غيره، هي له «المرأة» الوحيدة، وهو لها «الحبيب» الوحيد، وعندما كانت تشعر بالخذلان والخيبة في حياتها بعيدة عنه لم يكن سواه ملجأها. وكان هو يغذي فيها هذه الناحية للاعتماد عليه، فيروي لها في أكثر من منام أنه رآها في مأزق خطر فاندفع نحوها يخلصها أو يهلك معها: «... كنا نعبر ممراً، ذات يوم، جبلياً، وكنت تسبقينني عندما صرخت بك أن الطريق تنهار، لكن صرختي، بعد فوات الأوان، كانت الطريق انخسفت في حفرة هائلة ورحت تتدحرجين إلى الهاوية، وصرت تصرخين وكدت أصاب بالجنون لهول المنظر، وقررت أن أرتمي خلفك فوق الأرض المتهاوية، فاما أن أنقذك وأما أن أختفي معك، واستيقظت مرعوباً...».

من الرسائل القليلة التي نجت من الضياع وتقتصر على العام 1916، قبل موعد زواجهما بعام واحد، سأقتطف الفقرات التالية:

من رسالة أولى:

«يا صغيري پول أوجين... لا أستطيع أن أكون وحيدة. أخاف. تهاجمني أفكار مجنونة، لست مرتاحة. أبكي كثيراً. أستطيع أي شيء لأجلك، وسأعمل أي شيء. كن مثلي. دللني. اشفق عليّ، لست أملك شيئاً، لا كبرياء ولا طموح، إنني عارية وضعيفة أمامك.

لا تتهوّر وتخاطر، فكّر بي، كن هانئاً، إنني في حاجة إليك، اسأل أمك. كلمة واحدة منك تشفيني أنا المريضة.

لو تعرف كم أنا عاقلة. إنني حين أدرس لا أفكر إلا فيك أجلس في المساء أنتظر رسالتك. سأرسم لك ما تحب، دروسي في الرسم ستتحسن، ثم سأكتب فرضي الفرنسي، ثم سأذهب إلى النوم، أنام في سريرك في غرفتك وأصلي لك، ولنا.

تعرف أنني أحب الغنج، سأشتري عطراً أحبه. لكن إذا رأيت أن هذا ليس وقته، فلن أفعل، يكفي أن تقول لي لا تفعلي هذا. طمئني، إنني محتاجة إلى ذلك».

وفي الرسالة الثانية:

«كانت رسالتك بالأمس قاسية. ها أنت تشك بي من جديد. وتفكر أفكاراً شريرة. وأرى أنك متمسك بي لأنك تحب الحب ولا تحبني أنا. إذا كنت حدثتك عن محبتي «للزعرنة» فلا تصدق، لست كذلك.

في العمق، قبلاً لم أتصرف مع أحد كما تصرفت معك. كنت أحتقرهم جميعاً، إنني لا أقل طهارة عنك. وإذا كنت لا تسامحني، فإن حياتي تسامحني. إن أفكاري تتراقص في داخلي بجنون.

أنا في حاجة إلى النعومة، ألست أنت تنصحني بذلك؟ وتقول لي لا يجب أن تفكري في الانتقام، ولماذا الانتقام وأنا لا أشعر بذلك إطلاقاً. . . أكرّر لك أنني صريحة جداً ومخلصة

لك. وليس ذلك بدافع الجبن، فليس هناك ما أخشاه. كنت حلوة معك، عذبة، وأنا في حاجة إلى عذوبتك. هذا كل شيء. فإذا وجدت في هذا أمراً «وسخاً» فسامحني عليه. وإذا كنت ستعود إلى أسئلتك الشكّاكة فأنا تعبة. لكن إذا لا بد من الجواب فسنتحدث في ذلك. وهكذا ترى كم أنا مطيعة برغم كل تهجماتك عليّ. لكن لا تبالغ، إنه أمر خطر. إنني دائماً أحاول أن أسأل نفسي هل تصرفي من الرذيلة أو من الحب، لكنني أتأكد دوماً أنه الحب. وأنني أتعلم أشياء كثيرة من الحب. لكن لا تتحدث عن الخيانة. هذا مقرف. لا تعرف كم تؤلمني بشكوكك إنني لا أحب سواك، ليس لي أهمية ولست ذكية ولا إرادة لي، لا شيء. لا شيء أبداً سوى الحب... إذا أضعتك أضعت نفسي، فلا أعود غالا، بل أصبح مثل آلاف النساء البسيطات.

قبلك لم أعط أحداً ما أعطيتك بكليتي... إنني سعيدة لأنني التقيتك. وإني أباركك. كل ما أريده منك أن تعرف أن ليس لي أي شيء. فأنا ملكك. وإنك تملكني كلية. وإذا كنت تحبني حقاً فحافظ على حياتك من أجل هذا الحب، بدونك أصبح «ظرفاً» فارغاً. إن حياتي ملكك، في استطاعتك أن تحتفظ بها أو ترميها أو تعاملها بقساوة، فهي ملكك. إنني صريحة جداً. وإذا كان لمثلي أن تحاول إخفاء هذه الحقيقة فخشية المبالغة في استغلالها، لكنني أؤمن بك إلى أقصى حد. وأعرف أنك طيب، لكن لا لزوم لأن تقول لي أشياء فظيعة. هذا يؤلمني ويحزنني...

اكتب لي أسماء الكتب التي تحب أن أقرأها. سأكرّس كل وقتي لذلك، وسأكون راضية.

صدقني يا زوجي العزيز لأنك إذا لم تصدقني صارت الحياة مستحيلة، لأنني أفكر في مستقبلنا وفي حياتنا معاً. التي باتت وشيكة. أريد أن أشعر أنني ما زلت صغيرة وأحب أن أختبىء في أشياء بسيطة يومية حساسة».

وفي الرسالة الثالثة:

«لا تكن بائساً. أعطيك حياتي كلها كلها لأجل أن تكون راضياً. لا تعد إلى قول أشياء فظيعة عن حبنا. لا تقل أبداً... وإلا كانت مداعباتنا كلها وسخة. لا تقل ذلك. إنك لا تدري ما تقول، وإلا ضاعت حياتنا. لا يجب أن تقول ذلك، ولا أن تصدق ذلك إنها ليست مداعبات، إنها كل حياتي إنها الأجمل والأنقى، والأقدس، فإذا كنت وجدتها وساخات وجب أن تصارحني حقاً. لكن لا تفعل؟ هل تسمعني؟ هذا شيء رهيب، في استطاعتك أن تكرهني وأن تشتمني لكن لا تشتم حبي. ليس لي سوى هذا الحب الذي هو ملكك أيضاً، فليس من وساخات لا في أفكاري وتصرفاتي ولا في الواقع ولا في حياتي ولا في مشاعري. وإدا كنت عملت معك كل شيء و«أشياء غريبة» فلأنني متأكدة أنها معك، لأنني أحبك، كل شيء كان نقياً وجميلاً وسليماً.

لا تكن عصبياً، اهدأ. إن قلقك أحسّه وهذا ما يجعلني

مريضة. لا تقم بأي عمل طائش، سأكون هادئة وقوية، ولا يجب أن نستنفذ قوانا بلا طائل.

سامحني، سامحني أرجوك اكتب لي عن هذا الأمر. وسريعاً. إنني أتألم. لا يجب أن تكرهني. لا يجب أن تؤذيني. سامحني. تسألني أن أحدثك عن أخباري الماضية قبل أن ألتقيك. إنني الآن طاهرة كلياً ونقية، إنني أحب المرح. هذا كل شيء. لم أفعل ما لن يعجبك. لا بالفعل ولا بالقول، كل شيء لك. كل حياتي واضحة لك الآن، لأنها صارت لك. لا أعرف أحداً. ولا أخرج إلى أي مكان إلا إلى المدرسة. ولا تأتيني رسائل إلا من أهلي.

يدهشني أنك لا تستلم رسائلي. إنني أكتب إليك كل مساء...».

وفي الرسالة الرابعة، ويبدو أنه كان يستشيرها في موقف حول مهمته في الحرب، تقول له:

«إذا تصرفت بما يؤذي نفسك فإنما تفعل لتؤذيني أنا. فقط لتؤذيني أنا... لبست كنزة الصوف الخضراء فقط لأرضيك. سأفعل أبداً كل ما يرضيك، سأشتري رضاك بأي ثمن... كل حياتي، كل فكري، كل دمي لك. من أجل حبنا يجب أن تتحمل الكثير مما يضايقك في الحياة. فليس في الحياة كل ما يرضينا، علينا نحن أن نقولبها كما يرضينا... آه لو أعرف حقاً أنك ستكون هنا معي بعد شهرين، وأنك ستكون حيّاً آنذاك. لو أعلم أنك تحبني حقاً، بعيداً عن كبريائك وعن

خوفك من أن تكون جباناً، أو أنك لا تحبني مطلقاً. آه لو أستطيع أن أتأكد... أنت لست واضحاً في رسائلك وهذا ما يعذبني زيادة، إنني أحمل همّ أبسط الملاحظات التي تبديها، أبسط الكلمات تشغلني لكنني مستعدة أن أحمل أي شيء، إذا كنت تحبني. أنا أثبتّ لك حبي، جئت من البعيد إليك، إلى بيتك، أثبت لي حبك ببقائك بعيداً عن الخطر لتعود إليّ سالماً. إذا لم تكن تحبني كما أحبك، فلا أستطيع أن أتوسل إليك، أشعر بأنني فتاة ضعيفة مسكينة يمكن ملاطفتها عندما لا يكون ما هو أهم من ذلك. إنني أكره مثل هذا الأمر. إنني أتعذب، أشعر بأنك لا تحبني، وبأنني عاجزة عن أي شيء. إذن سأذهب لأعمل ممرضة في مكان في الجبهة، ولا أقول لأخيفك بل لأنني أعني ذلك، إذا لم تكن تحبني، ربما لأنني أضعف من أن أضع حداً مرة واحدة لحياتي...».

وفي الرسالة الخامسة:

«... أكتب إليك وإنا إلى المائدة، والدتك عيّرتني بأن لي كل نقائصك، وإذا كان هذا حقيقياً فإنني فخورة بأن أكون حمقاء، أكلت لساني مع الحساء. دلّلني، أحب أن أكون مرفهة مدللة. أحب التأنق والبذخ خاصة في العواطف. آمل أنك ستجعلني سعيدة ولا أحب أن تجرحني...».

وفي السادسة:

«اليوم رتبت «غرفتنا» كما لو أنني أخصائية في الترتيب، تعرف أنني لا أحب العمل في البيت، لكن يخيّل إليّ أن أمك

على حق عندما تقول بأنني أستطيع أن أفعل، إذا شئت، على أفضل وجه، لكنني أعتقد أنني لن أصبح ست بيت جيدة أبداً، إنني امرأة «دلوعة» أتصورني دائماً مضيئة معطرة، أمي كانت تلقبني بالأميرة لأنني لم أكن أعمل شيئاً في البيت، حتى لنفسي، لكنني أعمل الآن لأجلك. سترى ذلك بنفسك عندما تأتي. ولن أدع أحداً يراني أعمل حتى ولا أنت. حكت لك كنزة صوف، وكنت سعيدة أنها أعجبت أمك التي دهشت من عملي المتقن. ولو أن والدتي شاهدتني لما صدقت عينيها. أيكون أنك غيرتني؟ أبي يقول بأنني مريضة بالحب. مجنونة حب، كان يقول بجدية حتى انه كان يريد أن يستشير طبيباً في أمري...».

وفي السابعة:

«أزداد يأساً من لقائنا ثانية. الأيام لا تنتهي. ولست قوية ولا صبورة. لكن إذا انتهت الحرب والتقينا فسنعيش كملكين، سترى، سنكون حرّين سعيدين، والكتب حولنا، والكلمات، لكنني أخاف من تصور الغد لأنني لست واثقة كثيراً. وإذا حدث ذلك، إذا عدنا والتقينا فسنذهب لنعيش في النورماندي. وأنني أتصور منذ الآن الفساتين البيضاء الخفيفة للنورماندي. أريد أن أكون جميلة إذا استطعت لكن يجب أن أكون موفورة الصحة آنذاك، وإنني الآن شاحبة الوجه، ليس من برد الشتاء، بل لأنك لا تعالجني أنت ولو من بعيد، ولا تعتني بي. يكفي أن تكون أنت مرتاحاً وأن تبلغني ذلك، سأنام آنذاك ملء

عيني... الفستان الأبيض أريده مقلماً بخيوط زرقاء سماوية، والتنورة تبدأ من الصدر».

وفي الثامنة:

«إذا قررت أن تتركني فلن أعرف آنذاك ماذا سأفعل. لن يكون لي القوة الكافية للتصرّف بعقل. كل ما أملكه هو حبي لك. حبي الوحيد الكامل اللانهائي. لكنني أحس في أعماقي بأنك تحبني وبأنك لن تستطيع أن تعيش بدوني. وإذا كنت لا تعي أنت ذلك اليوم، فسوف تعيه في الغد. منذ الآن أقول لك أنني لا أستطيع أن أعيش بدونك. أطلب منك أن تحفظ لي حياتك، فحياتي مرتبطة بها».

وفي التاسعة:

«منذ فترة أنا أنتظر منك رسالة مطمئنة. هل تعرف أنه منذ ثلاث سنوات لم أشعر بالطمأنينة إلا أثناء ذلك الأسبوع الذي قضيناه معا. اجهد أن تبقى حياً بعد الحرب، وآنذاك لن تندم أنك حافظت لي على حياتك، سأعمل على جمع الرسوم التي وضعتها لك في ألبوم نقلبه معاً...».

وفي العاشرة:

«أنا ممتنة لك أنك موجود، إنني أعبدك، فكرك، جسدك، تصرفاتك، كل شيء فيك. كم أحب أن أعيش معك، سأقرأ لك كثيراً، اكتب لي رسائل مطولة... بالمال القليل الذي قد نحوزه سوف نرتّب حياتنا بطريقة جميلة. إنني أحياناً كثيرة أبكي من القلق، إنني مجنونة...».

وفي الحادية عشرة:

«أرسلت إليك كما طلبت كتاب أبولينير «الشاعر مقتولاً». صرت أحبه هذا الشاعر. اشتريت قطعة القماش السوداء لثوب سوف يكون مطعماً باللون الوردي. وبصديرية مذهبة بلا أكمام على الطريقة الروسية... ألا تحب، عندما تعود من تلك الحرب القذرة، أن ترى امرأتك جميلة معطّرة (لا تغضب إذا قلت لك بأني اشتريت العطر الذي كنت لمحت لك إليه، وأعدك بأنني لن أتعطّر به إلا عندما تأتي إليّ). لا تغضب أو تحزن، لن أفعل إلا كل ما يرضيك. سأجعلك فخوراً بي، لا تتنزه في الغابات وحيداً، قد يقتلونك أو يأسرونك، عدني بأنك ستكون حذراً من أجلي، سنعيش حياة سعيدة فريدة، أعبدك. إنني جد مطيعة، جد طيبة...».

وفي الثانية عشرة:

«يا ابني الوحيد، لست أطلب شيئاً من الحياة سواك، سأشتري لك كتباً. إنني الآن وحيدة في البيت. أستطيع أن أبكي قدر ما أشاء. لماذا أخفيت عني أنك كنت مريضاً. طلبت من اللّه أن يأخذ مني كل شيء، كل شيء أبداً، «مالي» وكتبي، وأن يقطع لي يديّ الاثنتين في الحال، لكن ليتركك حياً لي، ويحمك من كل أذى. إنني أتضرع إلى اللّه وإلى كل العالم، ولا أدري من أيضاً ليستجاب لي».

وفي الثالثة عشرة:

«عندما كنا نتمشى معاً لم أكن محتاجة أن أكلمك. كنت أكلمك دون أن أتلفظ بالكلمات.

يخيّل لي أحياناً اليوم وأنت تكلمني بالألفاظ المكتوبة، أنك تبتعد عني، تعرف أنني معك وحدك، أشعر بأنني قوية واثقة من نفسي، من أفكاري، من تصرفاتي بعيدة عنك أمرض أكتهل، أفقد صفاء نفسي التي لا تعود سوى ثقب أسود مضطرب، كم هو صعب أن يفقد الإنسان طمأنينته بعد شعور عذب بالراحة والحب، إن طمأنينتنا ليست تلك الطمأنينة البورجوازية، إنها القوة والجمال.

اعذرني إذا قلت لك أنني أصبحت ضعيفة، وأن الجنون يعاودني، وخوفي عليك. طمئني كلما استطعت حول ما يشغل بالي منك. ألا تعتقد أن اللّٰه معنا لأنه غفر لنا وشفاك من مرضك، ألا تعتقد أنه يحبنا ويحب حبنا؟

إن ابني الوحيد المدلل سوف يستعيد صباه عندما يصير في جانبي، وكذلك صفاءه وطيبته وسأكون سعيدة به. إن حبي لك هو الحقيقة الوحيدة التي أعرف.

لا يقلقك قلقي. إنه بعض طبعي ألا تعتقد أنها أشياء غريبة بيننا: فأنت إذ تخبرني أنك تعيش لحظات معينة أو أفكاراً معينة أكون في اليوم نفسه كتبت في رسالتي إليك صباحاً ما تكون أنت كتبته في رسالتك التي تصلني مساء. ألا يعني هذا كم صارت حياتنا متداخلة: أنت أنا وأنا أصير أنت؟

أتذكر الآن، عندما كنا في كلافاديل، كان ذلك بُعيد وصولي بقليل إلى فرنسا، انني صليت ونذرت أن تبتعد عنك تلك «الآنسة» التي كنت على علاقة طيبة بها، وأن اللّٰه

استجاب دعائي وأعاد إليّ ابني الحبيب الذي سأظل له مدى الدهر. . .».

وفي الرابعة عشرة:

«تسألني الزواج. ولِمَ لا نتزوج في الحال؟ لكن دينياً لست أدري ماذا أفعل. إنني أستشيرك كما أستشير ضميري: أعتقد أن لكل الناس على الأرض، كل العالم، إلّهاً واحداً، وأن الرب يقبل كل الديانات، إنه يقبل ديانة الوثني المتوحش ويفرح بها مثل فرحه بديانة الكاثوليكي أو الأرثوذكسي، فهو في كل مكان ولكل الناس وهو اللّٰه الواحد، لذا فلي أنا وأنت إلّه واحد، ولست أفرّق أن أكون كاثوليكية أو أرثوذكسية، إذا كنت مؤمنة. وأعتقد بأنني في أعماقي مؤمنة. أما لماذا أصرّ على الزواج في الكنيسة وليس في البلدية كما هو اقتراحك، فربما لأنني أريد أن أبدأ حياتي من جديد بمباركة الرب الذي سيبارك حبنا. وهو بارك مذ شفاك من مرضك عندما دعوته، ولست أدري الكثير عن هذا الأمر. أعني هل هي خطيئة في نظر اللّٰه أن يغيّر الإنسان دينه؟ لكنني أعرف أن والدي سيكون حزيناً. وأعلم حق العلم أن اللّٰه هو واحد للأبيض كما للأحمر أو الأسود، إذا كنت تفهمني ساعدني وإذا كنت تعلم أنها ليست خطيئة، فأنا أريد أن أصبح كاثوليكية وابعث برسالة في هذا الخصوص إلى كاهنك ليجعل لك أختاً مؤمنة في باريس، باريسك. . .».

وفي الرسالة الخامسة عشرة وهي الأخيرة في الرسائل والمؤرخة في 29 كانون الأول 1916:

«لا أقرأ شيئاً هذه الأيام، ازددت حماقة، خوفي عليك يشلني. لا تبتئس لأنك حلقت رأسك. لم تزل جميلاً يا طفلي الغالي. كن قوياً. فِ بوعدك لي، أين الهدية التي وعدتني بها. إنني عاقلة ومطيعة. لا تفعل شيئاً قبل أن تباركك الكنيسة... إنني لا أخشى النسوة الأخريات. أعرف أن هناك قوتين تحميانك من كل غواية، وتحفظانك لي: أنا واللّه. تقول إنك مستاء لا أدري مما أنت مستاء، بالتأكيد ليس مني أنا... بل من الحرب».

قد لا تكون هذه الرسائل القليلة التي استعرضتها هنا تحمل كل ملامح هذه المرأة التي استحقّت لقبها «المرأة الخالدة» ويكفي مراجعة قصائد پول إيلوار في الحب حتى نعرف ذلك.

سيرة ذاتية في مقاطع شعرية

كنقطتي ماء

من كل ما قلته عن نفسي ماذا تبقّى
احتفظت بكنوز مزيّفة في مرايا فارغة
زورق باطل يصل طفولتي بسأمي
لعبي بالتعب
رحيلاً بخرافاتي
يصل العاصفة بكوّة ليالٍ أكون فيها وحيداً
جزيرة بلا حيوانات بحيوانات أحبها
امرأةً مهجورة بامرأةٍ متجددة دائماً
في عرقِ الجمال
المرأة الوحيدة الحقيقية
هنا أو هناك
مانحة الغائبين أحلاماً
ممدودة يدها نحوي
تشعّ في يدي
فأقول مرحباً بابتسام

لا مجال للتفكير في الغباوة
فالغباوة تهيمن
نعم لقد أملت في كل شيء
ولقد سئمت كل شيء
الحياة الحب النسيان النعاس
القوة الضعف
ما عاد أحد يعرفني
اسمي وظلي ذئبان

عرائس اللاشيء المستعدات لكل شيء
أخوات أزهار بلا جذور
أخوات صبيات متمردات
صغيرات
لامباليات
صرن إلى الفهم
إلى الرشد إلى الموت فيه
منكمشات في أسراركن
أيتها الغريبات المُهملات
يا رفيقاتي البعيدات
ذوات الأجساد الحنونة
جميلات، بالكاد جميلات لكن دائماً جميلات
أشد بساطة من الشقاء

وأثمن من جمال
شفاهكن المدعوكة
وابتسامتكن المنكسرة
إنكن تودعنني سمومكن
أيتها المحصنات من السموم

وها أنا أواجه الحب
بصور مصنوعة
بدلاً من صور للصنع.

الرماد الحي

كلما تقدمتُ استطال الظل. قليلاً وتحيق بي آثاره الخربة وتماثيله المحطّمة. لن أصل أبداً. أفكاري المتعجرفة ارتبطت طويلاً بأبهة الضياء. أنا أحلّ من أمد بعيد عن رأسي حريرَه المتلألىء، كل هذه العمامة المتعطّشة للأضواء والمديح. لم يعد الآن سوى طريقة واحدة للخروج من هذه الظلمة! أن أقرن طموحي بالشقاء الساذج، أن أعيش كلَّ حياتي على أول درجة ليلية. بالكاد أن تعلوني. بالكاد أن تعلو عصافير الليل. منتزعٌ من هذه الأرض، من هذا الظل الذي يكفنني. للسماء لون الغبار.

هي الساعة الثالثة. موكب، صرخات، أناشيد، أسلحة، مشاعل، بهائم. أنا أتبع، أنا مضطر لأن أتبع لا أدري أي باشا، أي باديشاه ضخم. إني جدّ نعسان وأغالب.. إني أستحق الموت. كُلْ خبزك على العربة التي تقودك إلى خشبة المشنقة، كل خبزك في هدوء. قلت إنني لن أعود أنتظر الفجر. الليل خالد مثلي.

في كوخ تقدّم لي أمي كتاباً، كتاباً جميلاً. أفتحه وأبصق فيه. ابنتي جالسة قبالتي، هادئة كالشمعة.

إنه ليلُ المتسولين. سأفي بوعدي الذي قطعته لهم بأن أزورهم. منزلهم يحترق. هؤلاء الناس يستحقون المحبة حقاً.

أنا لم أكن أستحق هذا القدر من مظاهر التعظيم: خيولهم تحترق. يفتشون في الخنادق عن الكنوز التي يلتزمون تقديمها لي. كم هي جميلة أوراق الشجر غير المنظورة! قمت بحركة غير مفهومة: وضعت يدَيْ كحجاب على عينيّ.

(من «الهرم البشري»)

أين كنت

الوقت متأخر والسماء تترك الغرفة
سأذهب أبيع عنزاتي هذا المساء
أسير وراء قطيع
من أضواء ناعمة
الأشجار تقودني
تنغلق
وهي بذلك آمن ما تكون
سأبني ليلاً خارقاً هذا المساء
ليلي أنا
كالشمس بلا شكل
كله تلال مدوّرة تحت أيدٍ قروية
كامل كله وكله في نسيانٍ لذاتي
الراقصة المتجمدة وثقل ساقيها
إن حاولت تقبيلها
تتخطر شريكاتها الطائشات حول أنفسهن

ويتموجن عالياً بالملابسِ البرّاقة
سألطخ بالأسوَد الأرضَ والسقفَ
بالأسوَد والراحة والغياب والسعادة
بين الكف والجفن جمهرة اللذة
صامدة كلها حتى في النوم

هذا المساء سأوقد النار في الثلج.

(من «درس طبيعي»)

في ظل بابي

النشيد الأخير للعصفور يمنح أجنحة سوداء
ساعاتِ الصمت وساعات النوم
المنقار الأخير للعصفور يطبق على عيني
مسكن بغير أساس بغير جدران حيث أتألق
أتذكّر أوقيانوس الظهر المخيف
أتذكّر الغابة المكمومة الفم
بالشمس المزغبة بالرصاص على عاصفة من ذهب

يطيب لي العيش في الصيف فالحرارة تسحرني

أتذكر تلك الصبية الصفراء الشعر الرمادية العينين
أتذكر الجبهة والخدين والنهدين المستحمة بالخضرة والقمر
في ذلك الطريق المعتم والوعر حيث السماء الشاحبة
كانت تشقّ طريقاً مثلما تُشقّ قبلة

أتذكّر حركات أحلامي المترددة
على أسرّة مترجرجة ومن جسد بدون غيوم
كان يخرج جسد عنيف مغطّى برغبات وسلاسل

الحرارة تعزلني وطوراً تعرّيني

لا عيد إلا هنا
في هذه البيضة التي حضنتها الأرض والنهار
الراحة في ليلة صيف.

(من «أغنية كاملة»)

ما يقوله الكادح هو
دائماً في غير محله

شتاء كله أغصان وقاس كجثة
رجل على مقعد في شارع يهرب من الجموع
وتغمره الوحدة
مكان لجهاز اليأس التافه
لمراياه الرصاصية
لحماماته الملأى بالحصى
لتماثيله المهترئة
مكان لنسيان الخير
لخرق ذكريات الحقيقة
ضياء أسود، حريقة قديمة
للشعر الضائع في المتاهة
رجل أخطأ الطابق والباب والمفتاح
لكي يحسن المعرفة لكي يحسن الحب

أين يبتدىء المشهد
في أية ساعة
أين إذن تنتهي المرأة
المساء يحطّ على المدينة
المساء يلحق بالمتنزه في سريره
المتنزه العاري
الأقل شهوة إلى نهد بكر
منه إلى النهمة اللاشكل لها، المغذية للّيل

ثمة خرائب أتعس من فلس
خرائب لا توصف ـ ومع ذلك تفر منها الشمس وهي تغني
بينما السماء ترقص وتصنع عسلها
ثمة حيطان مهجورة تزهر فيها أغنية حب ريفية
ويهدهد الكلس الذي يتفتت
ظلالاً متمازجة
نار عاصية، نار الشرايين تحت الموجة الوحيدة للشفاه
خذوا الأيدي انظروا العيون
فاجئوا بالرؤية.

خلف القصور خلف الأنقاض
خلف المداخن والآبار
أمام الإنسان

على المساحة التي تنشر معطفاً من الغبار
تجرّ نفسها من الحمّى
إنه غزو الأيام الجميلة
مزرعة سيوف زرقاء
تحت جفون منفتحة في جموع الأوراق
يكون حصاد المتعة الخطير
زهرة القنب تحطم الأقنعة
الوجوه مُغتسلة
باللون الذي يعرف المدى
أيام الماضي الوضاءة
أسودها التي في الأقفاص ونسورها التي من ماء صاف
رعودها التي من كبرياء تنفخ ساعات
دم الأسحار المقيدة
عبر السماء
تاجها المنقبض على كتلة مرآة واحدة
وقلب واحد
لكن الآن أكثر انخفاضاً عميقاً بين الطرق المتهدّمة
هذا النشيد الذي يمسك الليل
هذا النشيد الذي يصنع الأصم الأعمى
الذي يمدّ الذراع إلى أطياف
هذا الحب الرافض
الذي يتخبّط بالهموم

بدموع مسفوحة
هذا الحلم الممزّق المتصدّع المجدول المضحك
هذه الهارمونيا المهملة
هذه القبيلة التي تتسوّل
لأنها لم تنشد غير الذهب
طيلة حياتها البكر
وغيرَ كمال الحب.

(من «الوردة العامة»)

هي...

هي، لكنها ليست إلا في منتصف الليل، عندما تكون جميع العصافير البيضاء قد أطبقت أجنحتها على جهالة الظلمات، عندما خبأت أخت ربوات اللآلىء يديها في شعرها الميت، عندما يستلذ الفاتحُ التنهدَ، سئماً من تعلّقه بالفضول سلاح الأبهة البطّاش واللامع، حلوة هي حتى إنها أدارت قلبي. كنت أخاف الظلال الكبيرة التي تنسج مفارش اللعب والزينات، كنت أخاف تلويحات الشمس عند المساء، والأغصان التي لا تنكسر حيث تظهر نوافذ «كراسي الاعتراف» حيث تنتظرنا نساء نائمات.

تمثال الذاكرة، يا خطأ الشكل، يا خطوطاً غائبة، يا شعلة منطفئة في عينيّ المطبقتين، أنا أمام رحمتك كصبي في الماء، كباقة زهر في غابة كبيرة. العالم الليلي يتحرك في حرارتك، ولمدن الأمس من شوارعها إيماءات أرق من الزعرور وأبهر من الساعة.

من بعيد تتكسّر الأرض في ابتسامات جامدة، السماء تلفّ الحياة: نجم جديد للحب يرتفع من كل مكان ـ انتهى، لم يعد ثمة دلائل ليل.

(من «عاصمة الألم»)

إنتهاء

قدمان في خفين من ذهب رقيق
ساقان في صلصال بارد
وقوفاً، الجدران المغطاة باللحم الذي لا فائدة فيه
وقوفاً، الحيوانات الميتة
هي ذي عاصفة لزجة
تثبت إلى الأبد تجاعيد وتكشيرات
هي ذي التوابيت تنجب
والأقداح ملأى بالرمل
وفارغة
ها هم الغارقون يغوصون
متلفي الدم
في ماء آمالهم الماضية، اللانهائي الغور

ورقة ميتة حقد مائع
ضد الرغبة والفرح

الراحة وجدت سيدها
على أسرّة من حجارة وشوك

صدئت عربة الكلمات
لم تعد ثمة تجعيدة حب تقرب من الجسد
عمل كئيب ألقيَ علفاً
للشقاء المفترس
لتسقط الجدران المغطاة
بالأسلحة المؤثرة
التي كانت ترى بوضوح في الإنسان
رجال يسودّون من العار
آخرون يمجّدون وساختهم
العيون، أفضلها تستسلم

حتى الكلاب بائسة.

(من «الكتاب المفتوح»)

استمرار

عصفُ ريح عاتية، ريحٍ واحدة
من أفق لأفق
وهكذا على كل الأرض
لتكنيس الغبار
وربوات الأوراق الميتة
لتعرية الأشجار كلها

لإتلاف الزرع
لإسقاط العصافير
لتشتيت الأمواج
لتبديد الدخان
لضرب توازنِ
أكثر الشموس حرارة،
كتلة هاربة، ضعف،
عالم لا يساوي شيئاً

عالم قديم يجهلني
ظلٌّ مجنون
أنا لن أكون حراً إلا بين ذراعين أخريين.

كيف نعيش هنا

جعلت من نفسي ناراً إذ تخلّى عني الفضاء
ناراً لكي أكون صديقها
ناراً لكي أدخل في ليل الشتاء،
ناراً لكي أعيش أفضل.

منحتها ما كان النهار قد منحني
الغابات، الأدغال، الحقول والكروم
الأعشاش وعصافيرها، البيوت ومفاتيحها
الحشرات، الأزهار، الفراء، الأعياد.

عشت فقط على ضجّة اللهب المتذبذب
على عطر رائحتها وحده
كزورق يدور في الماء المحصور
وكميت لم أكن سوى عنصر واحد.

غياب

I

النشوة الهادئة والسر المسكين
هو ألاّ تكون منظوراً.

إني أعرفك يا لون الأشجار والمدن
ما بيننا هو شفافية العادة
بين النظرات الملتمعة.
إنها تتدحرج على الحجارة
كما يتبختر الماء.

في ناحية من قلبي عذارى تتباعد،
في الناحية الأخرى يدٌ رفيقة ترتاح على خاصرة التلال.
منحدر صغير من الماء يولّد مثل هذا الشلال،
هذا المزيج من المرايا

إيه أضواء الدقّة، أنا لا أرمش
أنا لا أتحرك،
أنا أتكلم
وعندما أغفو
حنجرتي هي خاتم على لافتة من نسيج.

II

أخرج على ذراع الظلال،
إني في أسفل الظلال،
وحيد.

الشفقة في الأعلى، وقد تمكث هناك طويلاً،
والفضيلة جعلت من نفسها حَسَنَة ثدييها
وعلقت الرحمة في شباك أجفانها.
إنها أجمل من شرفات المسارح،
وأشد قساوة،
إنها في الأسفل مع الأحجار والظلال.
لقد واصلتها.

ها هو، المكان الذي يسلّم الضياء فيه بآخر معاركه.
إذا أغفيتُ فلكي لا أعود أحلم.
ماذا تكون إذن أسلحة انتصاري؟

في عينيّ الكبيرتين المفتوحتين تعقد الشمس الروابط، أيه
بستان عيني!
كل الأثمار هنا من أجل أن تصنع أزهاراً

أزهاراً في الليل.
نافذة من ورق الشجر
تنفتح فجأة في وجهها.
أين أضع شفتيّ أيتها الطبيعة التي لا ضفاف لها؟

امرأة هي أجمل من العالم حيث أعيش
وأغمض عيني.
أنا أخرج على ذراع الظلال،
إنني في أسفل الظلال،
وظلال تنتظرني.

حق وواجب العيش

ما كان ليوجد شيء
لا حشرة مطنطنة
لا ورقة مرتجفة
لا حيوان مستكين أو نابح
لا شيء حار لا شيء مزهر
لا شيء جليدي لا شيء متألق لا شيء زكي الرائحة
لا ظل تلمسه زهرة الصيف
لا شجرة مكسوة بفراء من ثلج
لا خد مثقلٌ بقبلة فرحة
لا جناح متزن أو مستهتر في الريح
لا خلوة لجسدٍ ناعم لا ذراع مغردة
لا شيء متحرر ولا ربح أو خسارة
ولا تشتت أو اجتماع
على خير أو شر
لا ليلة مسلحة بغرام أو راحة

لا صوت جريء لا فم مزبد
لا صدر مكشوف لا يد مفتوحة
لا شقاء ولا بطر
لا شيء معتم لا شيء صاف
لا شيء ثقيل ولا شيء خفيف

إنما هناك إنسان
أي إنسان
أنا أو أنت
وإلا فلن يكون ثمة شيء.

(من «الكتاب المفتوح»)

عيونهم الصافية أبداً

نهارات التمهل، نهارات المطر
نهارات المرايا المكسرة والإبر الضائعة
نهارات الجفون المطبقة على أفق البحار
ساعات كلها متشابهة، نهارات الأسر،

فكري لمّا يزل يلمع على الأوراق
والأزهار، فكري عارٍ كالحب،
الفجر الذي ينساه يرغمه على خفض رأسه
وعلى تأمل جسده الطائع والباطل.

ومع هذا شاهدت أجمل عيون في العالم
إلَهة من فضة كانت تمسك ياقوتاً بيديها
إلَهة حقيقية، عصافير في الأرض
وفي الماء، لقد رأيتها.

أجنحتها أجنحتي، ليس ثمة شيء
غير طيرانها الذي يهزهز شقائي
طيرانها، طيران نجمة وضياء
نهر، سهل، صخر، طيرانها
أمواج أجنحتها الصافية

تفكيري مسنود بالحياة والموت.

القصيدة المرئية السادسة

I

لا شيء سوى الخمر. ليس عقاباً، حصة الأسد، بين الأوراق والأزهار وتزداد لذته بمقدار ضرورته.

لا شيء سوى الخمر، حب صاف ملء الجسد، حصة النسر، خمر الافتتان والتمجيد والحماسة.

لا شيء سوى الخمر عبر الكثافة، بين سطحي الأرض المتقابلين، بين مكانك وسمت الرأس، خمر قريبة بعيدة عميقة ومشعّة.

أَغرقْ الجهل والمعرفة في الخمر يخرجان منه بملامح السكر والحكمة.

II

أيها الساكن مدينةً منطفئة، إن بضعة ألوف السنين ستكفي

لأن تكسو بفراء أسطوري فاخر أحلامك، أحلامَ طفل محروم. بالطبيعة، بالصدفة وبالدلائل كنت مثل نبتة الشقاء الأكثر تجهماً، والأقسى برداً، مصيرها أن لا تنتج سوى زهور مطموسة مغمورة في الغابة، وفي الفضلات التي بالجهد تكاد تعيش في الغابة.

ومع هذا تصنعت، على ارتفاعات خيالية، هذا الدوار الذي يتملق الكبار. يا عائشاً على أنقاض ذكرى، أيها الابن الزائل للشك، إنك تجتهد في تهديم نصيبك من الواقع.

أحلامك اليائسة تجعل لك مكاناً تحت الشمس، لقد انتفعت بضعفك. في رواح النسيان ومجيئه، أضأتَ مدينتك من جديد.

III

حامل إلى أياد نظيفة شيئاً من الشرق، من ماويته الزكية. وثنايا فضيلته، المنشّاة. قلق الاختيار بين مأساة أو ملهاة، مرصوفة الواحدة كالأخرى بالملذات. المأساة تنزل. الملهاة تصعد، الحب يطفو.

IV

إني تلك الضحية الموحشة، ضحية المسوخ التي كانوا يُرقدونها في العشب، بين النعاج لإعادة الحياة إليها. أثر

صدَفَةٍ على العشب المنتظم داسته البهيمة خطوة فخطوة. رقص الظلال والضحايا يعارض خطوة المنتصرين. قبلة توقف سفك الدم.

عدالة منغمة. ضفة العالم الشمالية كانت تذوب. آخر صفائح الجليد العائمة كانت قد حملت طابع القِدَم. تحت سماء مجمَّلة، كان بذارٌ من ذهب حي يغطي بأبوّة أطلال الحياة.

منقوص الموت، كنت أفصل المساحة والكثافة، الامتداد والديمومة، كنت أتزوج بروز الخطوط الخفية، خطوط الحمى والهذيان، في جميع الطرقات، على قلة بهجة أيام وليال لا عنف فيها.

(من «داخل النظر»)

من أفق واحد إلى أفق الجميع

بعد الاستسلام الطويل عندما لم يكن يسكنه سوى رؤية زوجته الميتة، هزّته انتفاضة تمرد.

«صخرة في الماء»

شبيه بعصفور يرتدي بذلة القتال
رأس كالريح في قفص مظلم
شبيه بسيف عالق في شبكة
شبيه حب كبير غير موزع

نعم أقول نعم لكن كلمة لا هي التي تغلب
وكل صورة تعود إليّ خجلى

شجاع لكن أسير
أحب لكنني لم أكن أحب سوى امرأة ميتة.

وبحماقة شعر إنه ضحية ظلم.

ولم يفطن إلى أن الموت ليس غريباً عنه، ليس موته، لكن الموت الذي يعيش في أعماق كل الكائنات، ولدى الجميع صورة ضرورية عنه، كأن رفاصاً يطلقها من الطفولة والشيخوخة إلى الحاجز المتوازن لحياة محكمة خصبة.

أية ذبابة من ذبابات حياته
هي أم ذبابات موته.

حركة معوكسة لزمن طبيعي، حتى الرغبة الملحّة في الاستمرار.

شعر انه ضحية، بحماقة، ضحية الزمن الذي انكشف والزمن الذي يجيء.

...«Egolios»...

اسمع أيضاً الصوت
إنها هناك تلك التي ستحبها
دائماً دائماً وأبداً
إعترف بأنك لم تكن لتتنبأ باللحظة
التي ستخلدك

لن يتأتى لك الهرب بعد، إنك تحلم، فكّر إذن، إذا

استطعت، بزمن لا حب فيه، علّل، إذا استطعت، لِمَ هذا الوجه بالذات هو الذي يقف أمامك، وليس وجهاً آخر.

* * *

اسمع أيضاً الصوت
فلتحبّ فلتحب
وستحس بأنك أصبحت مثل سنديانة
وبأن الغابة ستكون ظلك
والعصافير والنجوم ستحطّ على رأسك

سوف لا تنام إلا في نوم شخص آخر وعينان لا تغمضان ستسهران عليك

ستجنّ لدى فكرة السعادة وستأخذ أغصان الشمس بين ذراعيك

* * *

اسمع أيضاً الصوت
كل ما لم تقله هي
وكل ما لم أستطع أن أفترض الشك فيه

اسمع حولي أغنية الصمت
ستجن لدى فكرة الشقاء
كما لو في خندق في الصحراء

مثل مريض مهمل
قد يأتي يوم تحسّ نفسك ميتاً،
وحياً ستعرف أكل الدود،
حتى درجة اللاشعور
حتى الغياب، مطمح كل سر.

كان قد عاش حتى ذلك الوقت بدون خطيئة. وها هو يصبح شريراً. عندما تجتاحه رغبة في البكاء، وغالباً ما تجتاحه هذه الرغبة، يشعر وكأنه الأول. أية سخافة أي عبث، وهو الأخير إلى الحزن المربك. وهكذا يحمّل أولئك الذين كانوا يحبونه من الغضب والحماقة ما لا يوصف. فهو لم يكن يريد أن يشعر بأنه ليس محبوباً كفاية.

الممرات العالية المخضوضرة المشمسة، غابت عن عينيه، فصار عليه أن يعبر ممرات مظلمة ودبقة.

«نشيد المهلة الأخيرة»

سواد، هو اسمي عند اليقظة
سواد، هو القرد الذي يضايقني
والذي يتقولب في تكشيرات غريبة مضحكة
أمام مرآة ليلي

سواد هو ثقل تخبطي
هو نصفي البارد المهترىء

سواد حيث انغرس السهم
حيث توقّدت الجذوة
سواد هو الجسم اللطيف المصعوق
وأسود هو الغضب ذو الشعر الأبيض
والفم المنخفض المزبد

هذه الرغبة المجنونة في العواء
لن تكف إلا مع انطفاء صوتي
على سروات ضريحي
حيث سيأتي للبكاء عليّ شركائي
كل أولئك الذين ساعدوني على الحب
والذين سيحتفلون بحزني

خُلِقْتُ ويداي معقودتان
على يدين أخريين
خلقت مع عينين
كانتا تستعيران عيني للرؤية
أما اليوم فأحس بعظامي
تذوب في البرد الكثيف

أحس العالم يختفي
لا ضحكاتنا ترن
لا ليالينا ولا أحلامنا
تفحم الندى
بكيت كثيراً فالعش فارغ
حيث لا نكون إلا معاً

ابتعدوا عن ألمي
فهو يأتي من التراب
ينكر كل التضحيات
فلم يكن الموت بالشيء الحسن
ابتعدوا إذا لديكم الرغبة في حياة بلا موت

تحت أجفانكم الواجفة
وفي وحل رغباتكم
السواد هو صفر يتكور
صفر صغير بلا حدود
قادر على ابتلاع
حصة الإنسان الكبرى

السواد هو أنا وحدي فكونوا على بيِّنة
. . . .

أيتها الساحرة اللامبالية
تعرفين جيداً مصيبتي
لكنك تصمتين عن البوح
وفمك يتغيّر دوماً صوراً
ولا يكثر من قبلاته
إلا ليخفف من عبء الكون

أتوسل إليك أن تلقي
جسر نظراتك على ليالي المضطربة.

وبتداخل الحواس، شيئاً فشيئاً، تظهر الرغبة في التضامن. صديق، صديقة، ويبتدىء العالم من جديد، وتتجسّد المادة اللاشكل لها. خط مستقيم يعبر الصدور. من جديد يتشابه الرجال ويؤخذ الشقي بابتسامة، ابتسامة ربما هي أقل رقّة من الأول، ولكنها أصدق وأفضل. وعاد إلى تخيّل ما يمكن أن يصير إليه أخوته إذا ما حطموا عزلتهم. إنه يسمع هدير النشيد الذي كان يرتفع من الحشد. ولم يعد يشعر بالخجل.

أولئك الذين أحبوه كانوا جيشاً، يقصدون الينابيع للارتواء، ويناضلون ضد الجهد الضائع في الظل. كان الألم قد أضحى محتملاً، كانت الشجرة تخرج من الأرض وثمارها تنضج وسيكون ثمة غذَاء للجميع.

وما دخل أولئك الأخلاقيين؟
رجل عاد إلى أشباهه، أخ شرعي.

دعوني إذن أميِّز ما يساعدني على الحياة
مانحاً الأمل إلى الرجال التعبين
برغم أفراح الحب الثقيلة

إنهم يحبون يا للنبل
يعملون من أجل الذين يحبون
يا للطاقة
لكنهم أيضاً يعملون من أجلكم

كل أمجاد الحب
لا تلغي هذا التعب
الذي يسبّبه العمل الزائد
من أجلكم أنتم الذين لا تعملون

إني أشهّر بالظالم
نازعاً الأشواك
محاولاً محو التغضنات
متكلماً والباب ينفتح
دعوني إذن أميِّز ما يساعدني على الحياة

رغبتي بالنقاهة استهلكت كل الحُمّى
ثلج تحت الشمس إني ابن امرأة
وأتمثّل أحياناً فضيلتها

فخليج بطنها يصنع الرجال الأحرار

العيش يعني المشاركة إني أكره الوحدة أسباب الموت ما تزال متعلقة بي لن أعاني أحداً كما في السابق الخبز هو علامة الهناء الخبز الطيب الذي يجعل قبلتنا أكثر طيبة

الملجأ الوحيد الممكن هو العالم بأكمله
العيش اليوم هو حل الألغاز
ونكران ألم الولادة الأعمى
تحت نجم سيىء
العيش هو أن تضيع لكي تجد الناس

فلتمح صفرة النهر
ولتر الأعين الرائعة كل شيء في محله
التعاسة وقد اختفت والنظرات وقد انتظمت
نظام النمو من حبة إلى زهرة إلى شجرة
إلى غابة حية تشبك الكون الطفل الذي يستعيد فتوة العالم ضاحكاً.

الفينيق

أنا الأخير على طريقك
الربيع الأخير الثلج الأخير
المعركة الأخيرة لكي لا نموت

وها نحن أدنى وأرفع هنا من أي وقت مضى

في أتوننا من كل شيء
تفاح وصنوبر وعوسج
ولكن أيضاً أزهار أقوى من الماء

وحل وندى

اللهب تحت أقدامنا اللهيب يتوّجنا
على أقدامنا حشرات وعصافير ورجال
سيطيرون

الذين يطيرون سيحطّون

السماء صافية الأرض مظلمة
ولكن الدخان يصعد في السماء
السماء أضاعت كل نيرانها

على الأرض بقي اللهيب

اللهيب هو غيمة القلب
وكلّ أغصان الدم
إنه يغنّي لحننا

يبدّد الضباب من شتائنا

في الليل برعب اشتعل الأسى
الرماد أزهر بهجة وجمالا

ونحن ما نزال ندير ظهرنا للغروب

كل شيء له لون الفجر

الموضوعات

رسائل حب
إيلوار ـ غالا

سيرة ذاتية في مقاطع شعرية

[يتضمن هذا الكتاب الطبعة الأولى من «قصائد حب» التي صدرت عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» العام 1984. ثمّ القصائد التي ظهرت في العدد 27 من مجلة «شعر» اللبنانية، سنة 1963، وترد هنا تحت عنوان «سيرة ذاتية في مقاطع شعرية». كما يتضمن الكتاب أيضاً الرسائل المتبادلة بين إيلوار وغالا، التي لخصتها وعلّقت عليها في صحيفة «النهار» البيروتية، مطلع العام 1987.

ع.م.

« تلك التي أحبّ

تُجسِّدُ رغبتي في الحياة،

الحياة التي أعيشها الآن فإذا هي أبداً الآن.

ولأنّه ليس ثمّة حياة أخرى فإنها حياة رائعة».

پول إيلوار

ISBN 9953-438-50-1
9 789953 438504